الجمهورية العراقية ـ وزارة الاعلام

# الطبيعة عند المتنبي




د. عبد الله الطيب

# الطبيعة عند المتنبي

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي

بغداد ـ تشرين الثاني ١٩٧٧

وأحب إليَّ ان يقال أبو الطيب • وما أُريدَ بقولهم المتنبي أول الامر الا النّبْزُ والعيْبُ ، فصيَّره الاستعمال ، وما كان لشِعْرِه من سيرورة وشهرةٍ ، له كالحلية ، وذَكَر ابن خلكان ان بعض المغاربة كانوا يقولون ( المتْنَبّه ) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالةٍ على الفطنة وكَشْفِ ستار طبائع النفوس ، مكانَ دلالته الأُولى على دعوى النبوة •

هذا ، وقولنا الطبيعةُ نعني به ظاهرَ معنى هذا اللفظِ ، لانتَعمَّقُ وراءَ ذلك بشيءٍ ولله درُّ أَبي الطيِّب إذْ يقول :

أَبْلَغُ ما يُبْلَغُ المرادُ به الطَّبْعُ
وعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ

فمن ظاهرِ معناه صِفاتُ الأَمكنة والأَزمنة من أجْواءٍ وفُصولٍ وشمسٍ وأَصيلٍ وقَمَرٍ وليْلٍ ونُجومٍ والحيوانِ بَرِّيهِ وبَحْرِيِّه وجَوِّيه ، وزَعَم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بَعْضِ ما كان يُناقش به الدكتور أحمد امين رحمه الله أَيَّام الرسالةِ في سنواتِ الأَربعين أَنَّ الغَزَل من بابِ الطبيعةِ لأنَّ جمالَ النِّساءِ من مفاتنِ الطبيعة ذِرْوَةٌ ـ ولا يَخْلُو مقاله هذا من صوابٍ بايةِ ما كانَ كثيراً ما يقع وَصْفُ الرِّياضِ والغيوثِ في مَعْرض ذكر الطُّلول ووَقَفات بُكاءِ العُشَّاق وصفاتِ الظَّعائن الحِسَانِ كأبياتِ لبيدٍ :

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعامها

وابيات علقمة :

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها
حدورها من آتي الماء مطموم

وابيات عنترة :

أو روضة انفا تضمن نبتها
غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وكان ذو الرمة من الاسلاميين ربما مزج بين اوصاف النساء والطبيعة مزجاً فصار بذلك الى نوع من التصوف • وفي شعره تأمل وعمل كثير ويعجبني قوله :

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن
أمام المطايا تشرئب وتسنح

من المؤلفات الرمل أدماء حرة
شعاع الضحى في متنها يتوضح

وهنا صورة الظبية ورمالها وتألق الشعاع على متنها أوضح من صورة المليحة ، وصار ذو الرمة بهذه الصورة الى تجويد ومزج بين الطبيعة والمرأة أقوى في قوله :

براقة الجيد واللبات واضحة
كأنها ظبية أفضى بها لبب

بَيْنَ النهَارِ وبَيْنَ اللَيْلِ مِنْ عِقَدٍ
عَلَى جَوانبه الأَسْباطُ والهَدبُ

صُوَرةُ بروزِ الظَبْيَةِ من كُثْبانِ الرَمْلِ واضواء الأصيل، وضُروب نَبات الطَرْفاءِ والشُجَيْراتِ ذاتِ الورق السَبِط ههنا بَيِّنَةُ الأَبْعادِ والمَعالم ، ومع ذلك تُخالطها مَعانِي الغَزَلِ في هذه الابيات : اللَبَاتُ الواضِحَةُ والجيدُ البرَاق من المرأة .

وأتمَ ذو الرمة إِحْكَامَ المَزْجِ بين الطبيعةِ والجمالِ البشري في قوله :

كأن عمودَ الفَجْرِ جيدٌ ولَبَةٌ
بعَيْدَ الدجى من حُرَةِ الوَجْهِ سَافِرِ

هنا صُوَرةُ امْرأةٍ جَميلةٍ بَرْزة سافرة الوَجْهِ على رأسها الخِمَارُ وجيدُها ولبَاتها مُشْرِقَةٌ ومن حَولِها سَوادٌ . وصُوَرة أوَلِ طلوعِ الفَجْرِ بنورِهِ النَاعِم المخالطِ الظلامِ وشَفَقِه المزوج البياضِ بالأرْجُوان ويُطيف بـه بُروزُ الأَفاقِ بنباتها وسُهولها ورُباها ..

شدَ ما تُشْبِه هذه الصورة لَوْحة لينـاردو داڤنشي التي سماها ( الضاحكة ) أو ( الباسمة ) ( لاجيوكندا ) .

وقد يَتَساءَلُ المَرء هل هذا من باب توارد الخَواطِرِ كما يَقَعُ الحافِرُ على الحافر ، أمْ وَقَع الى ليناردو داڤنشي بَعْضُ ما تُرْجِمَ الى اللاتينية أو عنها من شِعْرِ غَيْلانَ . ؟

ويُخَيلُ الى الكثيرين ، وهـذا من بعض ما دَفَع الدكتور زكي

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أن موضوع أشعار الطبيعة فن اختص به الافرنج ، وقصر فيه العرب ؛ فهب شوقي رحمه الله في :

آذار أقبل قم بنا يا صاح

وغيره يستدركون ذلك .

والمتأمل ربما صح عنده ان اوصاف البساتين ، وهي التي حلت محل اوصاف الأبل والقفار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق، قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممن عرفوا العربية فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كلمة ابن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلماً
في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى
تنقل الخطو على ما يرسم
زمراً بين فرادى وثنى
مثلما يجلو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سناً
فثغور الدهر منه تبسم

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بله المشارقة من أمثال الصنوبري وأبى عبادة وابن الرومي وأبى تمام .

وألفتُ النظر ، على سبيل المثال ليس إلا ، الى قصيدةِ الشاعر الانجليزي أندرو مارفيل ( ١٦٢١ ـ ١٦٧٨ ) التي أسماها ( خواطِر في حديقة ) (Thoughts in agarden) فان اول ما استهلها بذكر النخْلة وليس في بلاده نخل ، والظلِ الذي وصفه أول الامر ظل نخلة ـ ثم قال إن خلاط الناس ليس بشيء اذا قيس الى الوحدة والعزلة والخلوص من دنيا المجتمع الى فكرةٍ خضراء في ظل أخضر .

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وشبه هذا بقول أبى العلاء لا يخفى :

ذَراني وكُتْبي والرياضَ ووَحْشتي
أَكُون كَوحْشِيٍّ بإحْدَى الأمالس
يشَوِّفُ أزهارَ الربيع تَعِلَّةً
ويأمنُ في البَيْداءِ شَرَّ المجالسِ

وقوله الظل الأخضر فيه نفس ابى تمام حيث قال :

يا صاحبى تقصيا نظريكما
تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه
زهر الربا فكأنما هو مقمر

فكأنما هو ظل أخضر .

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stummbling on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصْفِ ابن الرومي للرازقي وأوصافِ ابى الطيّبِ لثمار شِعْب بوان :

لها ثَمَرٌ تُشِيرُ اليك منه
بأشرِبَةٍ وقفن بلا أواني

وكم يَود المرء لو تفرغ بَعْضُ طلاب العربية لدرسِ اللاتينية ليطلعوا على ما تُرْجِم من أَشْعار العربية وميراث آدابها ذى الكنوز وأَخذَهُ مِنْ بَعْدُ الافرنجُ أَخْذاً من دون اعتراف اما جَهْلاً أَو عامدين . ويُنْسَبُ اكثر افتتانِ الافرنج بالطبيعة في القرنين الماضِيَيْن إلى الحركة الرومانتيكية والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مَذْهَبِ من سبقوهم إلا بالّذي روّجه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا لا يخلو من روح تَصَوف لعله اسلامي المعدن والسِّنْخ في اصله ، وفي تأملات رُوسو وهو يَمْشي منفردا وبعض ما جاء فِي اعترافاتِه ما يُشْعِر بذلك .

هذا ولَفَت نظري من أشعار الانجليز الرومانتيكين ومن اليهم بوَجْه

خاص قصيدة كيتس عن البلبل ( ١٧٩٥ ـ ١٨٢١ ) فقد استهلها بذكر الهمّ والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم وقصيدة وليم بلاك ( ١٧٥٧ ـ ١٨٢٧م ) يذكر النمر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمِرُ يا نمر ..
ذا اللهب الوهاف ...
في غابات الظلام .....

ثم وصف خُطا النمر وذِراعَيْه وجبروته ( وحين أخَذَ قَلْبُك في الوَجيب ، يا للسّاعد .. ويا للقدم ... الرّهيب ) .

لا شك ان وليم بليك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصالة والرومانسية الفذّة قد اطّلع على ترجمة من كلمة ابى الطيب النادرة :

وَرْد اذا ورد البحيرة شاربا
وَرد الفراتَ زئيره والنّيلا
ما قُوبلت عيناهُ الا ظُنّتا
تَحْتَ الدجى نارَ الفريق حلولا
يَطَأُ الثرَّيَ مترفقا من تيهه
فكأنّهُ أسٍ يَجُسُّ عليلا
ويرد عُفْرته الى يَافُوخه
حتى تَصير لرأسه إكليلا
وتَظُنّه ممّا يُزَمْجر نفسه
عنها لشدّة غيظه مشغولا

قَصرت مَخَافَتُــــه الخُطـــا فكأنما
رَكِبَ الكميُّ جـــوادَه مشــــكولا
القى فريســـــته وبَرْبَـــــر دونهـــا
وقـــربت قُرْبـــاً خالـــه تطفيــــلا
ما زالَ يَجمَـــعُ نفســـه في زوره
حتىّ حَسِبْتُ العرض منـــه الطولا
أسد يرى عضـــويه فيـــك كليهمـــا
مَتْنـــاً ازلّ وســـــاعدا مفتــــولا
وَيدُقُّ بالصَّدرِ الحجـــارَ كأنَّـــه
يَبْغى إلى ما فـــي الحضيض سبيلا
أَنَفُ الكريم من الدنيـــة تـــارِكٌ
فـــي عَيْنِه العددَ الكثير قليـــلا
والعـــارُ مضّـــاض وليس بخـــائف
من حَتْفِـــه من خـــاف مما قيـــلا

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيـــدة وليم بلاك من تَتبُّع معاني أبى الطيب في صِفة عَيني الاسد ، وهيئة تَبَهْنُسِه بمشيته وَتَجمعـــه وزمجرته ليَثِبَ وشجاعةِ قلبـــه وقلة اكتراثه بالعدد الكثير وتَوَهُّمِ ابى الطيب ان عِنْدَهُ معاييرَ من قضايا النّبْلِ الذي يَأبى الدنية من مضض العار ....

What immortal hand or eye
Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبى الطيب :

حتى حَسِبْتَ العرض منه الطولا

In what distant deeps or skies
Burnt the fire of your eyes

وهو تكرار لقوله الأول

……………… burning bright
In the forests of the night…

وقوله الذي ترجمته ( غابات الدجى ) أو ( غابات الظلام ) انما هو من قول أبى الطيب ( تحت الدجى ) •

وحام وليم بلاك حول معانى الحكْمة التي عنـــد أبى الطيب بنوع من جُهْدٍ وتكلف غوص •

What the hammer? What the chain?
In What furnace was thy brain

وتكرار معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قَبْلُ جوفاء ذات قعقعة ليست في مستوى ما تقدمها ••••

ثم أيُّ مخٍّ للأسدِ ؟ ••• إنّما هو قَلْبُه الباسل ولو كان معه مُخٌّ لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لَوْلا العقول لكان أدْنَى ضَيْغَمٍ
أَدْنَى إلى شَـــرفٍ من الانســـان

هذا ومثْلُ هذا التّوافق والتوارد على الخواطرِ يَعْسرُ أَنْ يُظَنّ فيه أنه لم يَنْظُرْ فيه الآخِرُ وهو وليم بلاك الى الأوّل وهو أبو الطّيب ، وقد نَعْلَمُ أَنْ علوم العربِ وآدابهم كانت تُتَرْجَمُ ويُلِمُّ بها اولـــو

الثقافة في اوربا ـ ومن حسب أنه انما كان يُتَرْجَمْ الطب والفلسفة والرياضيات والفَلَكْ وما إلى ذلك ولا يُؤبَهُ الى الأَدبِ فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) ـ (١٧٨٣-١٨٤٢) في احدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشاق العرب وجميل بثينة أن رجال الفكر الاوربيين لما وجدوا آداب العربية : مع الذي كان من معرفة العرب بعلم يونان ، لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديسة، احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعمري ان في هذا الذي قاله لدليلا على اطلاعهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك ، وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن طريق أحد مدرسيه •

واذ ثَبت اطلاعُ مفكري الافرنج على آداب العربية فما شابه اساليب روائِعها من روائعهم فعنها أخذوه ، ولا نَلتَفِتُ لما اظهروه من إعراض واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وجحوداً • واحْتِجانَ صَليبِيَّةٍ على الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد ، فقصيدة البحتري التي يوازن بينها وبين قصيدة أبى الطيب ، مع وصفها غِيلَ الأسد والمنظر المحيط به كانت أشد حرصا على اظهار بسالة الممدوح ومهارته بالسلاح وفنون القتال :

هزبراً مشى يَبْغي هِزْبراً وأغلبا
من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا

حَمَلت عليه السّيْف لاعزمــك انثنى
ولا يَدْكَ ارتدّتْ ولا حَدُه نبــــا

لكنّ أبا الطيب مع ذِكره بَدْرَ بن عمــار بالقوة والشجاعة وقولـه فيـــه :

أمْعفّرَ الأســدِ الهزَبْرِ بسَوْطه
لمــن ادّخــرت الصــارم المصــقولا

( ولا شك أنّ بدرا أطربه هذا المدح ) إنما كان إعْجابه بالأسد ، هذا الحيوانِ الفذّ الشجاعة الباهرِ الشراسة ، الباسل مَنْظرِ الوجه .

ومع أن ظاهر قوله :

أســدٌ يرى عُضْوَيْهِ فيــك كليهما
مَتْنــاً ازلّ وســـاعَدا مفتــولا

كأنه في صِفَة جسم بدر بن عمار الرياضي ذى العضلات ، لكن باطنه في صِفَة الاسد اذ المتن الأزل والساعد المفتول هما عضوا الأسد والذي عند بدر بن عمار شَىْءٌ يُشَبّه بهما ، فتأمل .

وأحسب أن أبا الطيب لم يَخْلُ من استشعار نَوْعِ ســـماجةٍ في ممدوحه الانطاكي اذ قال :

لم نَفْتَقِدْ بك من غَيْثٍ سوى لَثَقٍ
ولا من البحر غَيْرَ الريح والســفن

ولا مــن الليثِ الا قُبْــحَ منظره
ومن ســواه سوى ما لَيْسَ بالحسن

وهل قبح الليث الا أنّ منظره مُخيف ؟
القى فريسته وبربر دونها
وقربت قرباً خاله تطفيلا
أسدٌ يرى عضويه فيك كليهما
متنا أزل وساعدا مفتولا

ووصف أبى الطيب للفارس والفرس بعدُ لا يخلو من إشعار بضعفهما ازاء هذا « الخبعثنة الشجيع » ـ ولعلّه ما غلبه الا كثرة العدد عليه من كلّ جانب ـ تأمّل قوله :

قصرت مخافته الخطى فكأنّما
ركب الكميّ جواده مشكولا

أليس فيه إشعارٌ بخوف الفارس كما قد خافت فرسه الظامئة الفصوص التي :

يأبى تفرّدها لها التمثيلا

هذا وذكر « اللثق » الذي مرّ آنفاً ما أرى أبا الطيب قصد بذكره تفضيل صاحبه على الغيث كما قد قصد الى إثبات تجربة أحسّها من خبث اللثق ـ وهو الطين اللزج الذي تصيره الارض الزراعية غير ذات الرمل بعد المطر ـ وسماجة الوحل فيه • وقد يجود الغيث ولا يكون معه لثق •

وشبيه بذكره اللثق ، ذكره الريح والسفن إذ معنى ذلك الدوار ولعله عاناه في بعض اسفاره والله أعلم • هذا وأبو الطيب عميق الاعجاب بجنس الأسد وقوله :

كل غـــاد لحاجـــة يتَمنَّى يتفارَسْنَ جهرة واغتيـــالا

من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصابا لـــم يلتمسه سؤالا

كل غـــاد لحاجــــــة يتَمنَّى ان يكون الغَضَنْفَرَ الرئبالا

فيه تأويلُ جانبٍ كثير من هذا الاعجاب ، إذ الناس سِباع" والأسد أَصْرَحُ وأنبَلُ سَبُعِيَّةً منهم ومن قـــدر على أن يكونه في القـــوة والإقدام والهَيبة كأنهُ لا يتردَّد • وعند نفسه كان أبو الطيب أســـداً ـ كما قال :

فارْم بى مـــا أردت مِنّى فـــإنى

أســـدُ القَـــلب آدمـــيُّ الـــرواء

وقريب منه قوله من قبل :

وجاهِلٍ مدَّه في جهـــله ضـــحكى

حتى أتَتـْــهُ يَـــد" فرَّاســـة وفم

اذا رأيت نُيــوبَ الليـــث بـــارزةً

فـــلا تظنّنَّ ان الليْـــثَ يبتســـم

فدل بهذا على المكتمن في نفسه من ان صاحِبَ القلب الاسدي أسد" له انياب وأظفار فلا عَجَب أن استشعر نحوه ممدوحوه كل حذر •

وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :ـ

أجارِكَ يا أســـدَ الفراديس مُكْرَمُ

فتســـكنَ نَفسِي أم مهان" فمُسْلَمُ

ورائـــي وقـــدَّامى عـــداة" كثيـــرة

أحاذرُ من لصٍّ ومنـــك ومنهـــم

فهـــل لك في حِلْفي على مـــا أُريده

فـــأني بأَســـباب المعيشـــة أعـــلم

ولم يخل في هذا من نظرٍ الى كلمة القتّـــال الكلابي حيث زَعم أَنه صَحِب النمر في الغار:

ولي صاحِبٌ في الغارِ هدَّكَ صاحبـــاً

هو الجَوْنُ الا انـــه لا يُعلّـــلُ

اذا ما التقَيْنا كان جُـــلّ حديثِنـــا

صُمَاتٌ وطرْفٌ كالمعـــابِل أطْحَلُ

فأغلِبُه فـــي صَنْعَـــة الزاد إنـــي

أمَيطُ الأذى عنه ومـــا إنْ يُهَلّلُ

وكأنَّ أَبيات القتّالِ هـــذه من فُكاهـــاتِ العرب وَنوادِرهـــم وأكاذيبِهـــم كالذي زَعَمُوا من تزوجَ السّعْـــلاة وقِتـــال الشّقّ والغول •

ويقول أبو الطيب :

ومن يَجْعَل الضّرْغامَ بازاً لصَيْده

تَصَيّدَهُ الضّرْغام فِيمَا تَصيّـــدا

فما كان يَغيبُ عنه استحالة حِلْفِ أسْدِ الفراديس • ولكنّـــه كما قال :

تمَنٍ يلـــذ المســـتهام بذكِـــرْهِ

وان كان لا يُجْدِي فتيلاً ولا يُجْدى

وَغَيْظ على الأيّام كالنار في الحشَى
ولكنه غيظ الأسيرِ على القدِّ

وقد نعلَم قصَّةَ ناسكٍ كليلة ودمنة إذ أصاب فأرةً صغيرةً فدعا الله ان تَصيرَ آدميَّةً حتَّى يقدر على تربيتها فلما شَبَّت واراد تزويجها لم يَجِدْ لها مِمَا يعجبها كفئاً إلاّ الفأر فدعا الله أن تكون فأرةً.

وقد نعلم إعْجابَ الروماتتكيين ووليم بلاك منهم — بيدَاوة الأعراب وتوحّشهم.

فلعل هذا الاعجاب دَفَعه وهو لا يَشْعُر الى أن يُحَوِّلَ ما أصاب من صِفَةِ الأسد في الذي بلغه من شِعْرِ المتنبي أو ما ترتّبَ بَعْدَ تأثيره أو حُذِيَ فيه على أسلوبه ، فيجعله في النمر :

Tigre, tiger, burning bright
In the forests of the night.

وما عَرفَ أو أَبَه أنَّ نَمِرَهِ مُخَطَّط ، وهو ضَرْب من وحوش بلاد الهند ، وأَن نَمِرَ العرب ذو نُقط . ومنه قولهم نَمِرة يَعْنُون الثوب ذا النقط والالوانِ واياه عنى ابن مالك حيث قال :—

ولا يجوز الابتدا بالنّكِره   ما لم تفد كعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَه

ولعله لو فطن الى ذلك لكان سمى كلمته هذه بالأسد مكان النمر ، أم تراه عمدا آثر تسميتها النمر بقصد التعمية وليخفى مكان أخْذِه حيث أَخذ من أبي الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سَمِعَ ابْنُ عمته به وبحاله
فَنَجا يُهَرْوِلُ أمس منك مهولا

وليست الهرولةُ بأسرع الجَرْي ، كالذي يقع عند الفرار من مطَارِدٍ •
ويذكر أصحاب الصَّيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قُتِلَ بموضعٍ سارعت الأسود الى الانتقال منه تَسْتَوْبِئُه •

وأمرُّ مما فرَّ منه فراره ... وكقتْله ألاَّ يموت قتيلاً

وكأنَّ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي أستوبأ المكان فانتقلَ عنه :

تلِفَ الذي اتخَذَ الجَراءة خُطَّةً
وَعظ الذي اتّخذَ الفِرَار خليلا

وهذا كالرثاء للأُسود عامة ، أنها مع شجاعتها وقُوَّةِ اجسادها لاتقوى على مكر الانسان واحتياله واغتياله • وهل قَتَلَتْ أَسَدَ اللامية الاّ وَثْبَتُه ، حيث تلقتّه الرماح ، فنزف ثمَّ :

خذلَتْه قُوَّته وقد كافحته ... فاستَنْصَرَ التسليم والتجديلا
قبضَتْ منيَّتُهُ يَدَيهِ وعُنْقَه ... فكأنما صادفَتْهُ مغلولا

هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولاميته التي رثى بها أم سيف الدولة :

نعِدُّ المشرفية والعوالي ... وتَقْتُلنا المنون بلا قتال

إنهما « كَفى بِهما شاهِداً على ما ذكرته من انْفراده بالابداع » والذي يُشير اليه ههنا ما ذكره قوله عند الموازنة بينه وبين الطائيين « ولما تأملت شعره •••• وجدته أقساما خمسة ، خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره » ••• وهي الغاية التي وصف بَعْضَ امثلتها في بعض المواضع فقال : « وهذا الموضع لم يأتِ فيه أحدٌ بما يَثْبُت على المحَكّ الا أبو الطيب وَحْدَه وأما غَيْرُه من مُفْلِقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قد قَصَروا عنه » ••••• هذا مع زَعْمِه أَنَ أبا الطيب أراد ان يسلك مسلك ابى تمام

فقصَّرت عنه خطاه ولم يُعْطِه الشِّعْرُ من قياده ما أعطاه » • وهذا أسوقه لمجرد التنبيه لا لأزْعُمَ به أن أبن الاثير وَقَع به في تناقض • إذ لا ريب انه كان يرى أن روائع المتنبي أجود من روائع سواه ولذلك زعم انه خاتِم الشعراء واستشهد بقوله :

لا تمدحَنَّ كريماً بعد رُؤْيته
إن الكرامَ بأسْخاهم يداً خُتِموا

ولا تُبال بشِعْرٍ بعد شاعره
قد أُفْسِدَ الْقَوْلُ حتى أُحْمِدَ الصمم

وليت أبا الطيب رحمه الله عاش الى زماننا هذا ليشهد كيف أُفْسِدَ الْقَوْلُ وأُحْمِدَ الصمم وجاءتنا نُمُورُ أضرابِ « بلالِك » التي كانت عِنْدَه أسدا ••••

أسداً فرائسُها الأُسود يقودها
أَسَدٌ تكون له الأُسودُ ثعالبا

فصَيَّرناها نَحْنُ بافتنان المحاكاةِ الكاذبة سَنانيرَ •

هذا ، وما برّز أبو الطيب هذا التبريز الذي أشار اليه ابن الاثير وجَزَم به الذهبيُّ اذ قال « ليس في العالم احدٌ أشعَرُ منه أما مثله فقليل» ، بأَنَّه أدقُّ الشعراءِ غَوْصا على المعانى أو أكثرهم تشبيهاً واستعارةً ، أو أَخْبَرُهم بتوليدِ المعاني أو أشدهم افتنان في الأَوْصاف ، أو أَرقُّهم غزلاً ، أو أَقواهم أَسْرَ جزَالةِ الفاظٍ ، أو اجْهَرُهم رَنَّةَ جَرْسِ غناءٍ ، وأبْرَعهم وَشْيَ صناعةٍ بديعٍ ••• كلُّ اؤلئك له منهنَّ نَصيبٌ جيد واف ، غير أن من الشعراء من يتقدَّمُه فيهنَّ جميعا أو في بَعضهن دون

بعضٍ كالذي ذكر ابن الاثير من أمرِ أبي تمام حيث قال « هو ربُّ معانٍ وصيقل البابٍ وأذهانٍ » وجعل أبا الطيب دونه في هذا المسلك وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في بابِ الغوص على المعاني وتوليدها ، وكأنَّ الإجماع قائم بين النقاد على أنَّ ديباجة البحتري في المكان الذي لا يُدرَك ولذلك قال ابن الاثير إنه اجاد سَبْكَ اللفظ على المعنى وأراد ان يَشعُر فغنَّى • وإذَنْ فبماذا برز أبو الطيب ؟• وأحْسِبُ أنَّ ابن الاثير قد وَهِمَ في باب موازنَتِه بين البحتريّ وأبي الطيب في نَعتِ الاسد اذ فَضَّل هذا ثم قال في تَوضيح أسباب هذا التفضيل :
« والبحتري وان كان أفضل من المتنبي في صَوْغِ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أَفْضَلُ منه في الغَوْص على المعانى » ومحلّ وهمه أن هذه الصفةَ هي عينها التي قدّم بها أبا تمام عليه ثم عَدَل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفَرد بالابداعِ وذلك في الخُمْسِ الذي نصَّ عليه ولا يمكن ان يَكُون انفرادُه بالابداع بسَببِ الغوص على المعاني وهو ما خَبَّرنا أنه قد قصَّرت فيه خُطاه عن خطا أبي تمام •

وأقربُ الى الصواب ما ذكره ابن رشيق من أَنَّ أبا الطيب كان يَهجُم على معانيه كالفارسِ • والحَقُّ أن سببَ تبريزِ أبي الطيّب هو قُوةُ شخصيَّتِه ، وحرارةُ عاطفتِه وصِدْقه في البيان عن نفسه • وقد نَبَّه ابنُ جِنّي على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » •
وقد فَطَن أبو العلاءِ الى أَمْرِ شخصية أبي الطيب حين اعْتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن القارح من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذمّ الى هـذا الزمان اهيله
وناَمَ الخويدمُ عن ليْلنا
من ليِ بِفَهْمٍ أهيل عَصْرٍ ...الخ

« ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطَّبْع ، فما حَسُن بها مألوف الربع » .

وقد كان أبو الطيب رحمه الله كثير الاسفار . تَنَقَّل بيْن العراق والشام أيام صباه وشبابه قَبْل ان يلقى سيف الدولة . وقال في القصيدة التي مدح بها أبا القاسم العلوي :

إلَيّ لعمري قَصْدُ كلّ عَجيبَةٍ
كأنيّ عجيب في عيون العجائب
بأيّ بلادٍ لم أَجُرَّ ذوائبي
وأيّ مكانٍ لم تطَأْهُ ركائبي

وقال في مرثيته لأمه :

لئِنْ لذّ يَوْمُ الشامتين بموتها
فقد ولدت مني لأنفهم رَغما
تغرّب لا مستعظِماً غَيْر نفسه
ولا قابِلاً الا لخالقه حُكْما
ولا سالكاً الا فؤاد عجاجَةٍ
ولا واجدا الا لمَكْرُمَةٍ طعما
يقولون لي ما أَنْت في كل بَلْدةٍ
وماتَبْتَغي ما أَبْتَغي جَلّ أَنْ يُسْمى

وقال يذكر فقره وسيره على قدميه :

ومهمهٍ جبته على قدمي
تقصر عنه العرامس الذلل

بصارمي مرتدٍ مخبرتي
مجتزيء بالظلام مشتمل

اذا صديق نكرت جانبه
لم تعيني في فراقه الحيل

في سعة الخافقين مضطرب
وفي بلادٍ من أختها بدل

وتنقل أيام سيف الدولة يصحبه في حروبه وفي سوى ذلك من ضروب ارتحاله واكثر ما كان يغزو سيف الدولة بلاد الروم ، وربما خرج عليه بعض القبائل فحاربهم في البادية – من ذلك قوله :

طلبتهم على الأمواه حتى
تخوف ان تفتشه السحاب

فبت لياليا لا نوم فيها
تخب بك المسومة العراب

يهز الجيش حولك جانبيه
كما نفضت جناحيها العقاب

وتسأل عنهم الفلوات حتى
أجابك بعضها وهم الجواب

وفي سفر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلا :

واشقَى بلادِ اللهِ ما الرومُ أهلُها
بهذا وما فيها لمَجْدِكَ جاحد

شنَنْتَ بها الغاراتِ حتَّى تركتَها
وجَفْنُ الذي خلفَ الفرنجةِ ساهد

ومثلا :

وَصُولٌ إلى المُسْتَصْعَبات بخَيْلهِ
فلو كان قَرْنُ الشَّمْس ماءً لأوردا

سَرَيْتَ الى جَيْحانَ من أرضِ آمدٍ
ثلاثاً لقد أدناك رَكْضٌ وأبعدا

وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر الى مصر ، وكان بعض سفَرِه فرارا حَثيثاً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدةٍ مَدَحَ بها كافوراً :

وجدت أنْفع مالٍ كنت أذْخَرهُ
ما في السوابقِ من جَرْيٍ وتَقْريب

فتنَّ المَفاوِزَ حتَّى قال قائلُها
ماذا لَقينا من الجُرْدِ السراحيب

تَهْوِي بمُنْجَرِدٍ ليست مذاهِبُه
للبْسِ ثَوْبٍ ومأكُولٍ ومشروبِ

يَرْمِي النُّجومَ بعيْني من يُحاولها
كأنَّها سَلَبٌ في عَيْنِ مسلوب

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذئابَ الإنسِ طاوِيَةً

تُراقِبُ الجَدْيَ في الخَضْراءِ مسبوتا

وقد الْمَعْتُ بهذا المعنى في كتابي ( مع أبى الطيب ) ؛ وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأَخْذِ من أبى الطيب والتَّسلُّقِ على دَرَجِ مَراقيه •

وقِصَّةُ فرارِه من كافورٍ معروفة ، وقد ذكرها وذكر الإبلَ البُجَاويَّةَ التي اجتاز عليها التِّيه في كلمته :

الأ كُلُّ ماشيةِ الخَيْزَلَى فِدى كلّ ماشيةِ الهَيْدَبى
وكلِّ نَجاةٍ بُجاويَّةٍ خَنُوفٍ وَمَابِى حُسْنُ المشى
ولكنهّن حِبالُ الحياةِ وكَيْدُ العداةِ ومَيْطُ الأذى

حتى صار الى العراق •

وقد زارَ أرض فارس ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أرىَ أَسفى وما سِرْنا بعيداً

فكَيْفَ إذا غدَا السَّيْر ابْتِراكا

فزِلْ يا بُعْدُ عن أَيدِى رِكابٍ

لها وَقْعُ الأَسِنَّةِ في حشاكا

وأيّاً شِئْتِ يا طرْقي فكُوني

أَذاةً أو نَجاةً أو هلاكا

رووا أن عضد الدولة قال : ( تَطيَّرْت عليه من تَرْكه النجاةَ بَيْنَ الأذاة والهلاك • )

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافيةَ البيتِ الهلاكَ فهلك ، هذا وجميع ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد أفصح عَنْهُ بصدقه وحرارةِ عاطفته وقُوَّة شخصيته . فمن ذلك ما ضَمَّنه التشبيهَ والاستعارةَ وصُوَرَ البيان مثل قوله :

هُو الْبَحْرُ غُصْ فيهِ إذا كان ساكِناً
على الدرّ واحْذَرْهُ إذَا كان مزبدا

وقوله :

ويُخْشَى عُبابُ الْبَحْرِ وهو مَكانَهُ
فكيف بِمَنْ يَغْشَى الْبِلاَدَ إذَاعَبَّا

وقوله :

هَل الْحَدَثُ الحمراءُ تَعْرِفُ لونها
وتَعْلَم أَيُّ الساقِيَيْنِ الْغَمائم

بناها فأَعْلَى والقنا تَقْرَعُ القنا
ومَوْجُ المنايا حَوْلها مُتلاطم

فكما في البيتين الأوَّلَيْنِ صُورَةُ البحر مُزْبداً وصورته يَغْشَى الساحِلَ ويلطم صَخْرَه ورمله ههنا صُوَرة صَخْرَةٍ عاتيةٍ وسط البحر يُحيطُ بها صَخَبُ الأَمواجِ وهي الصّورة المستعارة لصفة الْقلعةِ وصِرَاعِ الجيوش حَوْلها ههنا .

وقوله :

حواليْهِ بَحْرٌ للتجافيفِ مائجٌ
يسير به طَوْدٌ من الْخَيْلِ أَيْهَم

وهَهنا أيضا كامِناً وراءَ الاســـتعارةِ إحْسَاس" قَوِي" باتســـاعِ البَحْرِ وعظمته وارتفاع الجبل وشموخه ، ولا رَيْبَ أنَّ هذا شعور" انطبع في نَفْسِ أبى الطيب من مشاهدةِ جبال لُبْنان وشَواطِيء سَواحِلِ الشام • ومِمَّا يدلك على صِحَّة هـــذا الذي نَذْهَبُ اليه قوله مثـــلا يُشَبِّهُ نفسه بالبحر والجبال على نَحْوٍ من تشبيهه نَفْسَه بالأسد :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أنَّنِي
الْجِبالُ وبَحْرٍ شَاهدٍ أنَّنِي الْبَحْرُ

ومن امثلة ما ضَمَّنَه التشبيه والصُّورَ البيانيةَ من انطباع نَفْسِي" ازاءَ بعضِ مظاهر الطبيعة قَوْلُه :

وجَيْشٍ يُثَنِّي كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ
خَرِيقُ رِيَاح واجَهَتْ غُصْناً رَطْبا

فهنا شعورُ رَهْبةٍ إزاء خَرِيقِ الرياح وهِياجِهـــا ، وتَأَمُّلَة" دَقِيقَة" لخَفْقِ ورُيْقَاتِ الأَغْصان الْخُضْرِ الدِّقَاق النواضــر وهي تَرْقُص وتَتثنى لهُبوبِ الرِّيح صَغِيرَاتٍ جَـــذِلات في أطراف الشجراتِ الكبيرات الثابتات للعَصْفِ الشديدِ من حولهن ـ كهذا الطَّوْدِ والجيوشُ تَتَخَلَّلُهُ كلٌّ صَخْرةٍ وممرٌّ منه كأنمـــا هي غُصن" رطب صَغِير" مهتز •

وبَعْدَ هذا البيت قوله :

كأنَّ نُجومَ الليـــل خافت مُغَـــاره
فمدَّت عليهـــا من عجاجته حُجُبـــا

وأحسِبُ أنَّ هذه العجاجةَ في الحقيقةِ ما كانت الا حَرِيقَ الرياحِ

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَفَساً من خبر يوم حليمة الذي زعموا أَنَّ العجاجَ فيه غطَّى ضَوْءَ الشمس حتى بدت النجومُ وقد عَكس أبو الطيب الصورة كما ترى .

وقولـه :

وكانوا يَرُوعونَ المُلوكَ بأن بَدَوْا
وأن نَبَتَتْ في المـاءِ نَبْتَ الغلافق

والشاهد هنا صـورة الغلفق وهو ما غَلُظ من الطُحلب الطافي على الماء .

وان يكن أتساع الصحراءِ بمنزلة بَحْرٍ ممتدٍّ ، فالمدائنُ وزروعُ أهل الريفِ في أطرافه وامراؤهُم وملوكُهم كل ذلك طافٍ كما يطفو الغَلْفَق .

وقولـه :

تعوَّد الا تقضـم الخَيْلُ حَبَّـهُ
إذا الهَامُ لَم تَرْفَعْ جُنُوبَ العَلائق

ولا تَرِدَ الغُدْرانَ الا وماؤُهـا
من الدَّم كالرَّيحَانِ تَحْتَ الشقـائق

وما أَحْسِبُ أن أبا الطيب جمع بين صُـورةِ الرَّيْحَـانِ تحت الشقائق البهجةِ الجميلةِ وصُورَةِ الغُدرانِ على اطرافِ سَطْحِ مائها الدَّمُ ، الا لمشاهدَتِه مَنْظَراً جمع بينهمـا انطبعت صُورَتهُ في ذِهْنه ـ وَحْشيّةُ الحَرْب ، ووَداعةُ الطبيعة ، فتأمَّلْ .

وقولـــه :

قـــد سوّدت شَجَرَ الجبالِ شعورُهم
فكأنَّ فيه مُسِفَّـــةَ الغِرْبَـــان

وجرى على الوَرقِ النَّجيـــعُ القاني
فكأنه النَّارَنْجُ فـــي الأغْصَـــان

وملاحظة المناظر الطبيعية ـ مَنْظرِ الغربان مُسِـــفَّةً على الشـــجرِ مُسْوَدَّةٍ بين خُضْـــرةِ أغصانه وغُبْرَتِهـــا ومَنْظَرُ النارنجِ على الأغصان ـ بَيِّنَة" ههنا ـ ولا أرى إلا أنَّ أبا الطيب قـــد نظر إلى قول أبي تمام :

ما رَبْعُ ميَّةَ معموراً يُطيفُ بـــه
غَيْلانُ أبْهى رُباً من رَبْعِها الخَرِب

ولا الخُدودُ وإن أدْمينَ من خَجَلٍ
أشْهى إلى ناظرٍ من خَدِّها التَّرِب

سَمَاجة" غَنِيَتْ منـــا العُيونُ بها
عن كُلِّ حُسْنٍ بدا أو مَنْظَرٍ عجب

والذي حسَّنها الانتصار ، ولقوّةِ شعور أبي الطيب به لم يَحْتَجْ الى أن يُفَسِّرهَ كما صَنَع أبو تمام .

وقولـــه :

تلاكَ وبَعضُ الغَيْثِ يتْبَعُ بَعْضَه
من الشامِ يَتْلُو الحاذِقَ المُتَعَلِّمُ

والشاهد هنا منظر تتابع السحاب ، صِغَاره يتلون كِبَاره وكُبْراهن المْبرقة من بُعْدٍ كأنما تَجْتَذِبُهنَّ اجتذابا •

وقولـــه :

لمـــا قَفلت من السَّـــواحِلِ نَحونا
قَفلت إليهـــا وَحْشَةٌ من عنـــدنا

أرجَ الطريقُ فما مَرَرْتَ بِمَوْضعٍ
الاّ أقام بـــه الشـــذا مُسْتوطنـــا

لو تَعْقِلُ الشَّـــجَرُ التي قابلتهـــا
مَدَّت محيِّيةً اليـــك الأغْصُنـــا

هذا الأَرجُ وهذه الاشجارُ ذاتُ الغصون أتراها مُجَرَّدَ الفاظٍ أُرِيدَ بها مَعْنَى المبالغة أمْ أوعية شعورٍ نابضٍ ذى إيحاءٍ قوى بتجربةٍ أحسَّها الشاعِرُ وانطبعت في نفسه كُلَّ انطباع ؟

وقولـــه :

مُنْذ احتَبَيْتَ بانطاكيَّةَ اعْتَـــدلت
حتَّى كَأنَّ ذوى الأوتار في هـــدن

ومذ مَرَرْتَ على أَطْوادِها قَرِعَتْ
من السُّجُودِ فلا نَبْتٌ على القُنَنِ

فههنا تجربة مَنْظرِ رؤس الجبال المرتفعات الصُلْع بعـــد أن يكونَ الشاعِرَ قد اجتاز مُرُوجاً وغاباتٍ ـ شـــاهد ذلك قولـــه : فلا نَبْتٌ على القُنَنِ •

وقولـــه :

أنا صَخْرَةُ الوادِي إذا ما زُوحِمَتْ
واذا نطقـــت فإنّنـــي الجـــوزاء

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاءِ علوّ المنطق وما أرى إلا انه اراد أن منطقه باهرٌ ذو ألق كما تتألق أنجم الجوزاء الثـــلاثُ اللاتي هُنّ لها كالنطاق ومكانهن في الليلة الظلماء واضـحٌ ايما وضوح •

وقولـــه :

وإن يَكُ سَيْفَ دولةِ غَيْرِ قيس
فمنـــه جُـلودُ قَيْسٍ والثيـــاب

وتَحْتَ رَبابه نَبَتُـــوا وأَثّـــوا
وفـــي أيّامـــه كَثُـــروا وطـــابوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد • وقد كان أبو الطيب بَدَوِيّاً مثل هؤلاءِ الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديدَ العطفِ عليهم والمَيْل الى جانبهم ، وفي بادينهم بادية الشام ، كان قضَى شَـــطْراً صالحا من أيام شبـــابه •

وقولـــه :

اذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهـــا ببطونهـــا
كمـــا تَتَمشّى فـــي الصعيدِ الأراقم

والبيت في صفة الخيل وتأمّل انسيابِ الثعابين ببطونهـــا ههنا جلى كما ترى •

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال واسع وأمثلته مما منه شفاف بتجارب سفره واحساسه بجمال الطبيعة كثير ، فنكتفي بهذا القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه إن شاء الله ، ما هو من معدنه وسنخه . هذا والضرب الثاني مما يقع من تجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي يتناولها كأنه جزء منها أو مستطرد به عنها أو متمم لمعناها أو من هذا المجرى .

مثلا قوله :

فأضحت كأن السور من فوق بدئه
إلى الأرض قد شق الكواكب والشهبا

تصد الرياح الهوج عنها مهابة
وتفزع منها الطير أن تلقط الحبا

وتردي الجياد الجرد فوق جبالها
وقد ندف الصنبر في طرقها العطبا

تأمل قوله « تردي الجياد الجرد » وما فيها من محاكاة وقع حوافرها والصنبر بكسر الصاد وتشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو البرد الشديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن .

والغرض هنا وصف قلعة مرعش . وموضوع الطبيعة المذكور اثناء هذا الغرض وفيه تجربة أبي الطيب مضمنة ، وصف هذه الرياح الهوج والطير التي أفزعها زفيف الريح . وكأن أبا الطيب قد نظر الى علقمة حيث قال :

كأنهُمْ صَابَتْ عليهم سَحَابَةٌ
صواعِقُها لِطَيْرِهن دَبيبُ

أي عَجَزْنَ عن الطَّيران لفزَعِهن •

ثم تَبِعَ هُبوبَ الريح نزولُ الثَلْجِ والبَرَدِ وتناثر قُطْنِ الصَقِيع
وقد خَرج أبو الطَّيب وصَحْبُه يَرُوضون جيادا جُرْداً ـ ولأبي الطيب
ارْتياح نَفْسٍ وبَهْجَتُها عِنْدَ الثلج • ولا يَخْلُو قَوْله : ( وقد
نَدَف الصِّنَّبْرُ في طُرْقها العُطْبا ) من نظر الى قول الفرزدق :

وأقبَلَ مَوْضُوع الصقيع كأنّهُ
على سَرَواتِ النُوق قُطْنٌ مُنَدَّف

وقول أبى الطيب بَعْدُ فيه الحركة ـ تَناثُر الصقيع كالقُطْن ،
وزَفيفُ الريحِ وعَصْفُها •

وكأن قوله : ( الجِياد الجرد ) فيه نوعٌ من إيحاءٍ بخُلُوِّ المكانِ
من خُضْرَةِ النبات الا الشَّجرَ العارِيَ السليبَ •

ومما يَدُلُّكَ على قوةِ انْطباعِ صُورَةِ الثَلْج وإحساسِ البَرْدِ
عند ابى الطيب قوله :

حتى عَبَرْنَ بأرْسَنَاسَ سَوابِحاً
يَنْشُرْنَ فيه عمائِمَ الفُرْسانِ
يَقمِصْنَ في مِثْلِ المُدَى من باردٍ
يَذَرُ الفُحولَ وهُنَّ كالخِصْيانِ

يَصِفُ بهذا عُبورَ خَيْلِ سيف الدولة ـ في أوائل الربيع يَغْزُون
أرْضَ العدو •

وقوله في صفة رياضة مهره ( الطّخرور ) زَمنَ الشتاء يلتمسُ له كلأً وقد غطّت الأرضَ الثلوجُ :

ما للمُروجِ الخُضْرِ والحدائقِ
يَشكو خلاها كَثرةَ العَوائقِ

أقامَ فيها الثلجُ كالمُرافقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ البَاصق

وهذا البيت منبىء بتجربة خاصّةٍ قوية • وما أشكُّ أن أبا العلاءِ أخذ منه حيثُ قال يصف بَردَ بغداد :

والماءُ وِردي لا تزالُ نَواجذي
في مُنتضاهُ سَوابِحاً كأوازِمِ

أحسبُه أخذ قوله ( سوابِحاً ) من صفة أبي الطيب الخَيْلَ وهنَّ يسبحن كالذي مرَّ من قوله :

حتّى عَبَرْنَ بأَرْسَناسَ سَوابِحاً

وقوله ( كأوازِمِ ) ـ أخذه من ههنا ـ ( يَعْقِد فَوْقَ السّنّ رِيقَ الباصق ) •

وزادَ قوله « منتضاه » يُضمّنُ ذلك تشبيهاً لحدِّ البرد بحدِّ السيف ، وذلك قول أبي الطيب ( في مِثْلِ المُدَى ) •

ونَعُود الى أبيات أبي الطيب :

أقامَ فيها الثَلْجُ كالمُرافِقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ البَاصقِ

ثم مَضَى لاعادَ من مُفارِق
بقائدٍ من ذَوْبِهِ وسائِقِ

والتشبيه مأخوذٌ من معنى ما هو في مَعْرِض وَصْفهِ من الرِّياضَة والركض أَعنى تشبيهه الذَّوْبَ بالقائِد والسائق • ويبدو لي أنه عَنَى بالقائِد ما يتقاطر من الثّلْج حين يكون عالِقاً بالصخور أو رُؤوسِ الدُّور وبالسائقِ ما يَنْشَقّ منه من وراءٍ فيَنْحَدِرُ له سائره •

كأنّما الطُّخْرُورُ باغِي آبقِ يأْكلُ من نَبْتٍ قصيرٍ لاصق
كقَشْرِكَ الحِبْرَ عن المَهارِق

المهارق الاوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منتزع من صناعة أبى الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مثل هذا من إحْسَانِه أبو منصور في فصله البارع الذي عَقَده له في يتيمة الدهر •

وقلَّ مكانٌ مرَّ به أبو الطيب ولَمْ يُسَجِّلْ انطباعاً عن جَوِّه وطبيعة أرضه • من ذلك مثلا قوله يصف لبنان في مَعْرِض مدحه أبا على هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

بيني وبَيْنَ أبى عليٍّ مثله شُمُّ الجبالِ ومثلُهن رَجَاءُ
وعقابُ لُبْنانٍ وَكَيْفَ بقَطْعها وهُوَ الشِّتاء وصَيْفُهنَّ شتاء
لَبِسَ الثلوجُ بها عليَّ مسالكي فكأنها ببياضها سوداء

وتشبيهُ شم الجبال بأبى عَلِيٍّ كأنَّ فيه ايحاء بتشبيههن برجال ذوى هيبة وعمائم ؛ وتشبيه الجبل بالشيخ معروف في الشعر ؛ ومنه ( وهو كالأَصْلِ ) قَوْلُ امرىء القيس :

كأن ثَبِيراً في عرانينِ وَبْلِه كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّل

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وَحْيَ صورته ذات الرجال العَدَدِ وقد شبّه رجاءَهُ الضخْمَ البَعِيدَ بجبالِ لبنانَ ذاتِ العلوّ يكسوها الثلج الأبيضُ • ثم تذكّر أن طريقَهُ إلى تحقيق هذا الرجاءِ إنّما يكون عليهن وهُنّ عَقَبات :

لَبِسَ الثلوجُ بها على مَسالِكي
فكأنّها ببياضِها سَوْدَاء

ومثلا قوله : يصف بادية الشام في الصيف :

تَوهَّمَها الاعرابُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ
تُذَكِّرُه البيداءُ ظِلَّ السُّرادِق

فذكّرتهم بالماء ساعةَ غَبَّرت
سَمَاوةُ كَلْبٍ في أُنوفِ الحَزائق

والشاهد هنا صورةُ الغبارِ وهو يُصيبُ مع الحرّ أُنوفَ الجموعِ المرتحلين – وأحسبُه لم يَخْلُ ههنا من النَّظرِ الى أبى تمام في قوله :

من لَمْ يُقَدْ فَيطيرَ في خَيْشُومِهِ
رَهَجُ الخَميسِ فلن يَقُودَ خميسا

ثم انصرف أبو الطيب بعد الى شيءٍ من ذكر صفات الصحراء :

وكانوا يَرُوعونَ الملوكُ بأن بَدَوْا
وأن نبتَتْ في الماءِ نَبْتَ الغَلافِق

فهاجُوك أَهْدَى في الفَلا من نُجومه
وأبْدَى بيوتاً من أداحي النقانق

وأصْبَـــــر عن أَمْواهِـــه ضِبَـــابه

وآلفَ مِنْهـــا مُقْلَـــةً للودائـــق

وبعض هذه الصفات التي خلعها على سيف الدولة من إلْفِ شدّةِ الحر والهجير والف المُقْلة لوَهَجِهِ انما كانت صفته هو وإلى ذلك أشارَ في قوله :

ذراني والفَـــلاةَ بِـــلا دَليـــلٍ

ووَجهــي والهجيرَ بِـــلا لثـــام

فإنّـــي أَســـتريحُ بِـــذي وهــذا

وأَتْعَبُ بالإنَـــاخَةِ والمُقـــام

عَيونُ رَواحِـــلي إنْ حِرْتُ عَيْنـي

وكلِّ بُغَـــامِ رَازِحَـــةٍ بُغَـــامى

فَقدْ أَرِدُ الميـــاهَ بِغَيرِ هَـــادٍ

سوى عَـــدّي لهـــا بَرْقَ الغمـــام

ولا أُمْسِـي لأهْلِ البُخْـــلِ ضَيْفاً

ولَيْسَ قِرىً سِوَى مُخِّ النَّعـــام

وقد كان النعامُ على ذلك الزمانِ كثيراً في فَلَوَاتِ بلادِ العرب الى مِصْرَ فيُوشِكُ الآنَ أن يَكُونَ قـــد انحازَ كلُّه الى أعمـــاقِ بلادِ المِنْطَقَةِ الحارّةِ ذاتِ المطر ـ وقد جاء ذِكْرهُ في شِـــعْرِ ابى الطيب كثيرا .

من ذلك قَوْله وقد توَسّـــط أرض العَرَبِ في فِراره من كافورٍ الى الكوفة :

بُسَيْطَةَ مَهْلاً سُقيت القِطَارا
تَرَكْت عُيونَ عَبِيدي حَيَارى

فظَنّوا النعامَ عليك النَّخِيلَ
وظَنّوا الصِّوارَ عليك المَنَارا

فأمْسَكَ صَحْبِي بأكوارهم
وقد قَصَدَ الضِّحْكُ فيهم وجارا

وقد أعادَ الاشارة الى هذا الحادث الصغير الذي أضحكه هو واصحابه في وَسْطِ أحاضَةِ المهالكِ بهم ، في مقصورته (الاكُلُ ماشيةِ الخَيْزلى) فقال :

وقلْنا لَها أينَ أرْضُ العراقِ فقالت ونَحْنُ بتُرْبانَ هـا
رَوامِي الكفافِ وكِبْدَ الوهادِ وجارَ البُوَيْرَةِ وادي الغضى
وجابَتْ بُسَيطةَ جَوْبَ الرِّداءِ بَيْنَ النَّعام وبَيْنَ المها

وذكرُ النعام والمَها هنا أشْعَرُ من ذِكْره في الابيات الرّائية التي تقدمت لما فيه من صُورَةِ شَقِّ الصحراء قِسْمين : فيه حيوانُها مُجْفلات، النَّعامُ من ههنا ، والمها من ههنا •

وسَرْدُ المواضع أُسلوب" قديم" الا أنَّ أبا الطيب أطاله وحَرَصَ على إيصالنا منْ تِيهِ مِصْرَ الى أرض العراقِ مَوْضِعاً مَوْضِعاً ، وأحسِبُ أن مُدّاحَ الرسولِ صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم حِين جَعَلُوا من طريقتهم ذِكْرَ مَراحِلِ الطّريقِ حتى يَبْلُغوا حَرَمَهُ الشَّريفَ والحَرَمَ المكيَّ ، قلّدُوه هُوَ أوّلاً مع عِلْمِهم بدُونِ شكٍّ

بمذهبِ القُدماء ، إذْ قلَّ منهم من لم يَكُنْ قد قرأ المُعلقات وعرَف منها أمثال :

فرياضُ القطا فأودِيَةُ الشُّرْبِ فالشُّعْبَتانِ فالإيلاءُ

وفي همزية البوصيري سَرْدٌ حسن للمواضع بين مِصْرَ والحرمين فقال في آخرِهِ :

هذِهِ عِدَّةُ المنازِل لا ما عَدَّ فيهِ السِّماكُ والعَوَّاء
فكأنّي بِها أرحِّلُ من مَكَّةَ شَمْساً سماؤُها البيداء

وقد انتقلت هذه الطريقة من مَدْحِ الرسول صلى الله عليه وسلم في الفَصيح الى مَدْحه في اللّسانِ العامي ، وافتنَّ في ذلك شعراؤه أيما افتنانٍ وهذا باب تفصيله يَطُول وهو بَعْدُ خارجٌ عما نَحْنُ بصدده الا قليلاً .

هذا ، والقصيدةُ المقصورةُ التي استشهدنا بأبياتٍ منها ههنا عَدَّ فيها أبو الطيب نحواً من عشرين موضعا ، وصوَّر فيها حركةَ انتقالِه في الصحراء مَمْزُوجاً ذلك بما كان يساوِرُ نَفْسَهُ من قَلَقٍ وغَضَبٍ ورُوحِ تَحَدٍّ .

وافتنَّ فجعل مطلع الصباح مُؤْذِناً بُدُنوِّ نهايةِ فراره وذلك قوله :

ولاحَ لها صَوَرٌ والصباحُ ولاحَ الشَّغُورُ لها والضحى

وصَوَرٍ والشغور مَوْضِعان بالعراق . وإذْ بلغهما وهما من معالم النجاة واقتراب المأمن ، التفت الى ما كان قد تجشَّمه من نَيْلِ الجهد والخوف قبلهما .

فيالك لَيْـــلاً عـــلى أعْكُشٍ أحمَّ البلادِ خَفى الصُّـــوَى
ورَدْنَا الرُهَيْمَةَ في جَوْزِه وباقيهِ أكْثرُ مِمَّـــا مَضى

ليست صفة الليل هنا مَذْهَبَ تقليدٍ شِـــعري ولكنَّهـــا تَجْرِبة تُحِسُّ صِدْق إحْسَاسِها ذى الطَّابع الفَرْدِيّ من أول وَهْلَةٍ ولكنَّا لانقبِلُ عليه بالتأمل الناقدِ العميق الاعجاب لِمَـــا تعودناهُ من عَـدم الإقبال على أَوْصاف الليلِ والنُّجُومِ والقمر مِمَّا يَقَعُ كثيراً بلا طابع مُشاهدةٍ اصيلة التجربة عند أَصناف الشعراء • تأمل قوله :

وأسْرِى في ظلامِ اللَّيلِ وَحْدي كأنيّ مِنْـــهُ في قَمرٍ مُنيــرِ

وقولـــه :

كأنَّ بنـــات نَعشٍ فـــي دُجـــاها
خرائـــدُ ســـافرات فـــي حـــدادِ

وقولـــه :

ما بَالُ هذِي النُّجـــومِ حـــائرةً
كأنَّهـــا العُمْىُ مالَهـــا قائِـــدُ

وقولـــه :

كالبَدْرِ من حَيْثُ التفتَّ رأيتَـــهُ
يُهْدِي الى عَيْنَيْكَ نُورًا ثاقبـــا
كالشَّمْسِ في كَبدِ السماءِ وضوؤهـا
يَغْشَى البـــلادَ مشـــارقا ومغاربا

وقولـــه :

كأنَّهـــا في نهارِهـــا قَمَـــرٌ حفَّ به من جنانِهـــا ظُلَـــمُ

هذا . وفي شعر أبي الطيب انطباعات" قوية دقيقة" مختصرة" عن البلاد التي شاهدها كالذي مَرَّ من صفة غبار سماوة كَلْب وجبال لُبْنَانَ وثلج الشام وصَلَعِ رؤس جباله وكقوله يَذْكُرُ ظهورَ الربيع عند عيد النيروز في بلاد الفرس •

ما لَبِسْنَا فيه الأكاليلَ حتَّى     لبستْها تِلاعُهُ ونجادُه

وكقوله في النيل :

وسَمْتُ به البيداءَ حتَّى تغمّرت     من النيلِ واستذرت بظِلِّ المُقطم

وفي قوله ( تغمّرت ) اشعار بكثرة ماء النيل وجسامته وفي قوله ( استذرت بظل المقطم ) إشعار بخصب مصر وخفض العيش الذي لقيه فيها وقد صرح بذكر هذا الخفض ، وجعله سبب سَقَمِه في القصيدة الميمية الرائعة التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً     فليس تزورُ إلاَّ في الظلام

بذلتُ لها المَطارفَ والحشايا     فعافَتْهما وباتَتْ في عظامي

يَضيقُ الجِلْدُ عن نَفَسِي وعنها     فتوسِعُهُ بأنواع السّقام

اذا ما فارقَتْنِي غسَّلَتْنِي     كأنَا عاكِفانِ على حرام

كأنَّ الصُّبْحَ يطردُها فتَجْري     مدامِعُها بأَرْبَعةٍ سجام

أراقبُ وَقْتَها من غَيْرِ شَوْقٍ     مراقبةَ المشوق المستهام

ويَصْدُقُ وَعْدُها والصِّدقُ شر     اذا ألقاكَ في الكُرَبِ العظام

وهنا تأمل دقيق • وليس وصف الحمى بأبعد ، في باب الطبيعة عن وصف الأسدِ والنعامِ ولا سيَّما ونَحْنُ الآن نَعْلَمُ أنَّ سببها حَيوان"

صَغِير" لا تراه العين ، وإنّمــا تُحِسّ النفوس أثره ، فهــذا هو الذي ذَكَره أبو الطيب رحمه الله • ومن جَيِّدِ ما يَجِيء به أبو الطيب مختصرا لملاحظاته وانطباعات تجاربِ الطبيعةِ في نَفْسه ما يَقَعُ في بابِ النسيب وَبَعض أغراضه الأخريات من صِفــاتِ الحَيــا وذكرِ النســائم ، مثل قوله :

رعى اللهُ عِيساً فارَقَتْنــا وفَوْقَهــا
مهــا كلُّهــا يُولَى بجفْنَيْهِ خدُّه

بوادٍ بــه مــا بالقُلوبِ كأنّــه
وقــد رَحَلُوا جيدٌ تَنَاثَر عِقْدُه

إذا ســارَت الأَحْداجُ فوق نَباتِه
تفاوَحَ مِســكُ الغانياتِ ورَنْــدُه

والشاهد هنا هذا الأرَجُ العَطِرُ المتفاوح من الرَّنْــدِ وتُخالِطُ نسيمَه الرقيقَ عُطورُ الغانياتِ وكأنّ أبا الطيب ههنا لم يَخْلُ من أخْذٍ من علقمة حيث قال ، من ميميته الفريدة :

يَحْمِلْنَ أَتْرُجَّةً نَضْخُ العبير بها
كأنّ تطيابها فــي الأَنْفِ مَشْمومُ

وقال أبو الطيب :ـ

فَدَيْناكَ من رَبْعٍ وان زدتنا كَرْبا
فانّك كُنْتَ الشّرق للشمس والغربا

وكَيْفَ عَرَفْنا رَسْمَ من لم يَدَعْ لنا
فؤاداً لِعِرْفانِ الرســوم ولا لُبّــا

جعل أبو الطيب ههنا ربعه رَمْزا للكون كُلّه وللطبيعة كلها ومحبوبته حيث كانت مقيمة به تطلع وتغيب :

نَزَلْنا عن الأَكْوارِ نَمشي كرامةً
لِمَنْ بانَ عَنْهُ ان نُلِمَّ به ركبا

والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرئ القيس :

قفا نَبْكِ من ذِكْرى حَبيبٍ ومنزل

وقولـــه :

وقُوفاً بهـا صَحْبِي على مطيهم

وقول أبي الطيب ( نَزَلْنا عن الأكوار نمشي ) فيه إفْصاحٌ بتَجربةٍ فردية سوى المُتَواضَعِ عليه في نعت الأطلال •

ونَحْنُ لا نملك بعد الا أن نَتَرجَّل مع الشاعرِ ونمشي وحَوْلنا كَوْنُ الطبيعةِ والذِّكْرى العريضة ولا يَخْلو مِثْل هذا المشيِ مع ما يُصاحِبـــه من تأمُّلٍ حزينٍ وادّكار من نَوْعٍ نشـــوةٍ وارتياحِ فؤادٍ وواقعيةٍ حيَّة •

واحسِبُ أن منَشأ هذه الواقعيةِ من كَوْن أبي الطيب قد كان مَعَهُ صَحْبٌ يشاركُونه النُّزول والمَشْيَ ، لا واقفين عليه مَطيَّهم كما عنـد امرئ القيس وطرفة ، ولا مستوقِفَهم هُـــوَ أو داعِيَهم الى أن يعوجوا ويعرجوا كما هو المذهب في النَّسيب •

ومَصْدَرُ النشوة والارتياح هذا الغَيْثُ الذي حسَّن منظر الأرضِ وطابَ نَسيمُها من بعده على ما أوقعه بمكان الربـــع من تعمية معـــالم ومحو آثار :

تَذُمُّ السحابَ الغُرَّ في فعلها به
ونُعْرِضُ عنها كلما طلعت عتبا

قوله الغُر فيه فَرْحة بالسَّحاب وحُب له ٠

ولا غَرْوَ فبالبادية نشأَ وكحُبِّ أهلها الغُيوثَ وبُروقَها أحبَّه ٠ وهو القائل :

فَقد أَرِدُ المياهَ بغير هادٍ سوى عَدِّي لها بَرْقَ الغمام

وهو هنا يُخاطب السحاب مخاطَبَةَ الصَّديق الذي نــه بودِّه العَهْدُ الطويل يَذُمُّه للذي فَعَل بالربَّع ويعاتِبه ويعرِضُ عنه وهو ـ أي السحابُ ـ عَلَيْهِ مُقْبِلٌ بلمعه الحُرِّ الأغرِّ الجميل ٠

وهل تَنَكَّر هُوَ للسَّحاب بَعْدَ هذا الودِّ كما هو شأْنُ رُفقاء هَذِهِ الدنْيا في التنكر ؟

ومن صَحِبَ الدنيا طويلا تَقَلَّبت
على عَيْنِهِ حتى يرى صِدْقَها كَذبا

ثم يَأخُذُ أبو الطيب في المَزْجِ بين حاضرِ ارتياحه للربع والأصيلِ والضُحَى والنسيمِ وغابِرِ ما كان ، من عَهْدِ مودَّةِ الحبيب وما يُثيرُه ذلك في نَفْسِه من طَرَبٍ ، وما تَعَوَّد به خِفَّةُ ذلك الطرب ( وقد أَخذَت الآنَ تَنقدَّمُ به السِّن ) الى سالِف عَصْرِ صِباه أيامَ كان غُلاماً يتوثَّبُ ويَثِبُ وشاباً يُقْدِمِ إقْدامَ الأَتِيِّ ، أي السَّيْل أو كما قال :

وأقدَمْتُ إقْدامَ الأَتِيِّ كأنَّ لي
سوى مُهْجَتِي أو كان لي عِنْدها وِتْر

وهذا كما ترى من أجود ما يقال من صفة حماسة الشباب وذكر السيل فيه ما قدمنا ذكره من صفة الطبيعة ضمن التشبيه .

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى
اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

ذكرت به وصلا كأن لم أفز به
وعيشا كأني كنت أقطعه وثبا

البيت الاول فيه إعلامنا انه التذ هبوب النسيم وأصائله وضحاه والبيت الثاني فيه الصورة التي زعمنا انه انتزعها من تذكر أيام صباه .

وفتانة العينين قتالة الهوى
اذا نفحت شيخا روائحها شبا

لها بشر الدر الذي قلدت به
ولم أر بدرا قبلها قلد الشهبا

وكأن عهد أبي الطيب بهذه الفاتنة غير بعيد ، وكأن قوله اذا نفحت شيخا روائحها شبا ـ وهذا شبيه بقوله :

تفاوح مسك الغانيات ورنده

وقولـــه :ـ

ولم أر بدرا قبلها قلد الشهبا

فيه معنى ما ذكرناه من قوة احساسه بضوء البدر وألق النجوم وانعكاس روح هذا المعنى في تعبيره ـ وصورة الحسناء ههنا لايخفى أنها ذات ألق وهاج انتزعه الشاعر من ضـــوء الشمس والبدر والدراري والشهب .

وتأمّل قوله :

ومَن يَصْحَبِ اسْمَ ابن العميدِ مُحمّد
يَسِرْ بين أنياب الأساودِ والأُسْد

يَمُرُّ من السّمِّ الوَحِيِّ بعاجزٍ
ويَعْبُر من أفواهِهِنَّ على دُرْدِ

كفانا الرَّبيعُ العِيسَ من بركاتِهِ
فجاءَتْهُ لم تَسْمَعْ حداءً سوى الرَّعد

اذا ما استَحْيَنَ الماءَ يَعْرِضُ نَفْسَه
كَرَعْنَ بِسِبْتٍ في اناءٍ من الورد

وهنا يشعرنا بأن سفره كان نهارا في ظلِّ الغمام وصوت الرَّعْدِ البعيدُ غير المرعب لبعده ، كأنّما هو حادٍ يسوق ابله . وقد نَشِطَت لاعتدالِ الهواء ولُطْفِه وشمولِ النعمة والرخاءِ ، حتى انهن قد داخلَهنَّ الحياء لما رَأَيْنَ كثرة الماء ، ووجدن انفسهن مُترفاتٍ قد رقّت شفاهُهُنَّ حتى صِرْنَ كالسِّبْتِ وهو جلد الماعز الرَّقيق المدْبوغ وجَعَلْنَ يكرعن بها من غدرانٍ يَحُفُّ بهن الزهَرُ ، كأنهنَّ يَكْرَعْن من آنيةٍ فضّةٍ تزين حَواشيَها الورودُ .

كأنّا ارادَتْ شُكْرَنا الأَرْضُ عِنْدَه
فلم يُخْلِنا جَوٌّ هَبَطْنَاه من رِفْدِ

وعنى بالرِّفْدِ هنا الجمال والارج الحسن . وشُكْرُ الارض تَفَتُّحُها بالخضرة والنّوار _ كما قال ابن الرومي :_

شَكَرتُ نِعْمَةَ الوليِّ على الوَسْمِيِّ

ثُمَّ العِهَادِ بَعْدَ العِهَادِ

وقد نعلم ان أبا الطيب كان من رُواةِ شِعْرِهِ وما خلا ههنا من إشارة خفيَّةٍ الى ما قد قال .

لنا مَذْهَبُ العُبَّادِ في تَرْكِ غيره

وإتيانِه نَبْغي الرغائبَ بالزهد

رجَوْنا الذي يَرْجُونَ في كل جَنَّة

بأرجان حتى ما يَئِسْنا من الخُلْد

تَعَرَّضُ للزوار أعناقُ خَيْلِه

تَعَرُّضَ وَحْشٍ خائفاتٍ من الطَّرْد

وتَلْقَى نواصيها المنايا مشيحةً

وُرودَ قَطاً صُمٍّ تَشايَحْنَ في وِرد

قالوا جعل القطا صُمَّا لاهتمامها بالطيران وانشغالها بِه عن كُلِّ شيء سواه ومن تَأَمَّل هذه الأبْياتَ الداليَّةَ ما صَرَّحَ فيه أبو الطيب منها بِذِكْرِ الطبيعة من رَبيعٍ وغَيْثٍ وزَهْرٍ وما لم يُصَرِّحْ ولكن جاءَ بِه في مِعْرَاضِ المدح يَجِدْ أنَّه ضَمَّنها تَجْرِبة سَفَرِه إلى ابن العميد كُلها ـ صَوْتَ الأُسود ، ودَبيبَ الحيَّاتِ ، وصُوَرَ الوحش النافرات وَضُروبَ القَطا والطَّير الوارداتِ المياه ... ثم نُفُور نفسِه هُو شَيْئاً من ابن العميد . وقد ذكروا أَنَّ ابن العميد عابَ عليه قصيدته الرائية .

بادٍ هواكَ صَبَرتَ أم لم تصبرا

فإن صحَّ هذا فهوَ لا ريب من أسباب النفور • وقد كان ابْنُ العميد من أكابرِ الكتاب في زمانه ـ ولا يَخْلو مذهبه من كُلْفةٍ وَظلٌّ ثقيلٍ أشبه شيء مع بعد القياس بموجة الشعر الحديث التي تجْتَاحُنا الآن •

هذا واحسب أن ابا العلاء قد أخذ من أبياتِ أبى الطيب الدالية هذه في وصفه سَفَره الى العراق حيث قال :ـ

وبتُّ بمُسْتَنٍّ اليرابيعِ راقداً
يطَوِّفْنَ حَوْلِي من فرادى ومن شَفْع

فهـذا كأنه مُولَّد من قول ابى الطيب يسير بين أنيابِ الأساودِ والأسْد • وحيث ذكر الابل فقال :ـ

لقَد زَارني طَيْفُ الخيالِ فهاجنى
فهل زَار هذِى الإبْلَ طَيْفُ خيال

لعل كراهـا قد أَراهـا جِذَابهـا
ذَوائِبَ طَلْحٍ بالعقيقِ وضَال

فهذا كأنه تَفْريعٌ من قول أبى الطيب « استَحْيَنَ الماء يعرض نفسه » وقوله « كَرعَنْ بسِبْتٍ في إناءٍ من الورد » • ومما يُصَحِّح ما نزعمه هنا ويُؤَكِّده قَوْلُ أبى العلاء :

وأَعجبها جَذْبُ العضاهِ أُنوفهـا
بمِثْلِ إبـار حُدِّدَتْ ونِصَال

فجعل الانف مكانَ المشافر وجَعَل العضاهَ وشوكها مَكانَ الورد وفي الورد شَوْكٌ إلا انه رَقيقٌ لطيف غَيْرُ بَدوِيٍّ خَشِنٍ كشَوْكِ السيال والطّلح وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة ، وإن بدا كأنه غَيْر داخلٍ فيها ، ما كان أبو الطيب يَجِيءُ بِهِ في شِعْرِهِ من صُوَرِ الحركة والمناظر التي تبدو معها ــ مثل قوله :ــ

وتُضْحِي الحُصونُ المُشْمَخِرّاتُ في الذرا
وخَيْلُكَ في أعناقِهن قلائِد

فهذا مَنْظَرٌ ذُو حركة ملتبس فيه الإنسان وَعَمَلُه بالطبيعة كُلَّ التباس ، ونحو منه قوله الذي مَرَّ آنفا :

حتى عَبَرْنَ بأرسناس سَوابِحاً
يَنْشُرْنَ فيه عمائم الفرسان

فكأنهن سُفُنٌ لهنَّ قلوع كما ترى .

وقوله :

كلما رحّبَتْ بنا الرَّوْضُ قُلْنا
حَلَبٌ قَصْدُنا وأَنْتِ السبيل

فقوله رَحَّبت مُنْبِىء بحركةٍ لما فيه من قُدومٍ وترحيب . ثُمَّ فيه معنى اتساع الرَّوْضِ وبَهْجته وانْطباع ذلك في فؤادِ الشاعر مع سُرْعةِ تَجاوزه له :

وقوله :ــ

فلما تَجلّى من دَلُوكٍ وصَنْجَةٍ
علت كُلَّ طَوْدٍ رايةٌ ورعيل

ولك ان تتخيل هَوْلَ هذا المَنْظَرِ ورَوْعته .

على طُرُقٍ فيها على الطُّرْقِ رِفْعَةٌ
وفي ذِكْرِهَا عند الأَنيسِ خُمُولُ

ورُعْنَ بنا قَلْبَ الفُراتِ كأنَّما
تَخِرُّ عليه بالرِّجالِ سُيُولُ

يُطارِدُ فيه مَوْجَهُ كُلُّ سابِحٍ
سَواءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ ومسيلُ

تَراهُ كأنَّ الماءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ
وأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحْدَهُ وتليلُ

منظر الجبال على رؤوسهن الراياتُ والخيلُ مَدَّ الأُفْقِ . ثم صُورة الخيول والفُرْسانِ المندفعةِ الى نَهَرِ الفُراتِ أَمْثالَ السيُول .

والتشبيهُ نَفْسُه يتضمن تَجْرِبَةً من الشَّاعِر لمنظر السُّيولِ وهي تَخِرُّ في نهر كبيرٍ ثم بَعْدَ دِفاعِ اوائل ملتقاه بِه تَمْتَزِجُ أمواهها وتَيَّارُها بأَمْواهِهِ وتياره ومثلُهن هؤلاءِ الفرسانُ وخَيْلُهم مندفعين حتى إذا صاروا الى الماءِ تَفَرَّقوا فيه يُدافِعُون أَمْواجَه وتُدافِعهم . وقد غَلَبَ اتساعُ النَّهَرِ على مَنْظَرِ قُوَّةِ انحدارهم العظيمة من قَبْلُ . ثم صارُوا من النهر جزءا خيولهم فيه سابحات ، كأن اجسامهن قد اقتطعها الماء فذهب بها ولم يَبْقَ من كلِّ فرس الا رأْسُه وعنقه .... ... طافياً بهما على الموج ...... كأنَّهُ من افراس البَحْرِ التي كُنَّا حتى زمانٍ قريب نرى صُوَرهن متفرقاتٍ هكذا على عَرَضِ النيل . هذه الصورة نادِرَةٌ مذهلة ذات انطباعٍ نفسيٍّ دقيق .

وقد قال ابن الاثير في باب موازنته بين أبي الطيب والطائيين :-

« ولا شك أنه كان يَشْهدُ الحروب مع سيف الدولة بن حمـــدان فيَصِفُ لسانُه ما أدىّ اليه عيانه » ••••• وليته قال : وجَنانُه فان رؤيةَ القلبِ أعم وادق من رؤْية البَصر ولذلك قال تعالى ، جل من قائل : « فإنّها لا تعمى الأبْصار ولكن تعْمَى القلوبُ التي في الصدور » وقال سبحانه وتعالى : « إن في ذلك لذكرى لِمَن كان له قلبٌ أو ألقى السّمْعَ وهو شهيد » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤية بصـــره بصيرة ـ ولم تكن الجيوش في زمانه تحارِبُ من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابى الطيب ينعت حركتها عظيما •••• وما أَحْسِب مصدرَ ذلك الا أنه كان يحب الهواء الطَلْقَ مع حركة المجال الرحيب ••• فالذي رأينا من صُورة الخيلِ قلائِدَ حَوْل ذُرَا الحصُوَنِ ومن صورهنّ وهنّ يَتَثَنَّيْنَ كلّ طَـــوْدٍ كأنهـــنّ ريـــاحٌ حَفَفْنَ بغصنٍ رَطْب وإذْ هُـــنّ يَعْبرن أَرْسناس ويَنْشُرن فيه العمائم وإذْ هُنّ يَعْلُون الهضـــاب وعَليهِنّ الرايات واذ هُنّ في الفرات كلٌ مِنْهنّ مقبل ••••••••

« رَأْس وَحْدَه وتَليِل » •

كلّ هذه صُوَرٌ من الطبيعة الطلقة امتزجت بها حركَةُ الشـــاعر والمشاهد الرائعة التي مَلَكت عَليه فؤاده وبصره •••••••••

تأمل قوله يَصِفَ جيوش سيف الدولة وخيله :

تُبارِى نُجَوم القَذْفِ في كُلّ لَيْلَةٍ

نجـــوم لـــه مِنْهُنّ ورد وأَدْهـــم

يَطَأْنَ من الأَبْطالِ من لا حَمَلْنَهُ
ومن قِصَدِ المُرّانِ ما لا يقوم

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرُ بقايا معركة . ولعمري ان أمثالها لنراها مُصوَّرة في رسم الفنانين الاوربيين فنَعْجَبُ بها وما هي لوَ قد تَفَرَّسنا الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلامىٌّ ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به مسلمون عليهم العمائم جعلهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك الا بضاعتنا ردت إلينا مثلا للفنان الاسباني غُوية صُورة فرسانها مغاربةٌ من قول ابى الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :ـ

رَغَا فَوْقَهم سَقْبُ السَّماءِ فَداحِضٌ
بشِكَّته لَمْ يُستَلَبْ وَسَلِيب

كأنَّهم صابَتْ عليهم سَحابَةٌ
صواعقها لطَيْرِهِنَّ دبيب

فلم يَنْجُ الا شَطْبَةٌ بلجامها
والا طِمِرٌّ كالقنَاةِ نجيب

والا كَمِيٌّ ذو حفاظٍ كأنَّه
بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّبَاتِ خضيب

هذا ونعود الى ابيات ابى الطيب :ـ

يَطَأْنَ من الأبطال من لا حملنه
ومن قِصَدِ المُرّانِ ما لا يَقُوَّم

فهنَّ مع السيدانِ في البَرِّ عُسَّلٌ
وهن مع النّينانِ في الماءِ عُوَّم

يَطَأْنَ من الأَبْطالِ من لا حَمَلْنَهُ
ومن قِصَدِ المُرّانِ ما لا يقوم

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرُ بقايا معركة ، ولعمري ان امثالها لنراها مُصوَّرة في رسم الفنانين الاوربيين فنَعْجَبُ بها وما هي لوَ قد تَفَرَّسنا الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلامي ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به مسلمون عليهم العمائم جعلهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك الا بضاعتنا ردت إلينا مثلا للفنان الاسباني غُوية صُورة فرسانها مغاربة من قول ابى الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :ـ

رَغا فَوْقَهم سَقْبُ السَّماءِ فَداحِضٌ
بشِكَّته لَمْ يُسْتَلبْ وَسليب

كأنَّهم صابَتْ عليهم سَحابَةٌ
صواعقها لطَيْرِهِنَّ دبيب

فلم يَنْجُ الا شَطْبَة بلجامها
والا طِمِرٌّ كالقَناةِ نجيب

والا كَمِيٌّ ذو حفاظٍ كأَنَّه
بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّباتِ خضيب

هذا ونعود الى ابيات ابى الطيب :ـ

يَطَأْنَ من الأبطال من لا حملنه
ومن قِصَدِ المُرّانِ ما لا يَقُوّم

فهنَّ مع السيدانِ في البَرِّ عُسَّلٌ
وهن مع النِّينانِ في الماءِ عُوَّم

وهُنَّ مــع الغزلان في الوادِ كُمَّنٌ

وهن مــع العِقْبانِ في النّيقِ حُوَّمُ

وقد يخيل للمرء اول وهلة ان هذا مَجِيءٌ به على مذهب المبالغة ولله در ابن الأثير اذ فَطَنَ الى أنه ما كان الا وَصْفــاً عن مشـــاهدة من قلب بصير .

وباب الحروب في شِعْرِ أبي الطيبِ كَبيرٌ ، ربما خرج بنا مما نحن بصدده ، فنلمع الى ما وقع فيه مُلابسا للطبيعة إلماعا مكتفين بهذا القدر الذي مرَّ ومشيرين الى امثاله مما وصف ابو الطيب ركوب الفُلْكِ ـ كالابيات التي استشهدنا بها من عبور أرسناس والفرات وكقوله :

تَلقى بِهم زبَدَ التيــار مُقْرَبــة

على جَحافلهــا من نَضْحِــه رثَمُ

وليست المقربة ههنا بخيل وانما هي سُفُنٌ واستعار لهــا جحافل أي شِفاهاً كما للخيل شِفاهٌ والرَّثَمُ بياض في الشفة العليا شَبَّه به بياضَ الموج .

والموج مما يشبه بالخيل كثيرا .

دُهمٌ فوارِسُهــا رُكّاب أَبْطُنِهــا

مكــدودَةٌ ويقــوم لابهــا الألــم

وكما وصف أبو الطيب السفن صنع كذلك أبو العلاء ـ وذلك قوله :

على نَجــاةٍ من الفِرْصــاد أيدهــا

رَبْد القَدُوم بأوصــالٍ واضــلاع

سارت فزارت بنا الأنبار سالمةً
تُزْجَى وتُدْفَعُ في مَوْجٍ ودفاع

وصورة المجذاف والجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهْمٌ فوارسها رُكّاب ابطنها
مكدوده ويقوم لابها الألم

واحساس الاعمى بحركة القارب وموسيقا لَطْمِ التيار اطرافه أدق في قول أبي العلاء :

سارَتْ فزارت بنا الأنبار سالمة
تُزْجَى وتدفع في مَوْجٍ ودفاع

وللسابق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم .

ولأبي الطيب في الصيد والكلاب والطرد قِطَعٌ وأراجيز لا تخلو من احساس الطبيعة واحسان وصفها . من ذلك ما تمثلنا به آنفا من قوله :

ما للمروج الخُضْرِ والحدائق يَشْكو خلاها كَثْرة العوائق

ومنها :

ومَنْزِلٍ ليس لنا بمنزِلِ ولا لغير الغادِيات الهُطَّلِ
نَدِي الخزامى ذَفِرِ القرنفل مُحلّلٍ مِلْوَحْشِ لم يُحلّلِ
عَنَّ لنا فيه مراعى مُغْزِلِ مُحَيَّنِ النفسِ بَعيدِ المَوْئِلِ
اغناه حُسْنُ الجيدِ عن لُبْسِ الحلى وعادة العُرْيِ عن التفضلِ

ثم اخذ بعد في نعت كَلْبِهِ :

له إذا أدبر لَحْظُ المُقبل
كأنّما يَنْظُر من سجنجل

يُقْعِى جُلُوس البدوىّ المصطلى     يَكاد في الوثب من التَفَتّل

يَجْمَع بين مَتْنه والكلكل

ذِى ذَنَبٍ اجرد غنـر اعزل

ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده • وقد عيب عليه قوله :ـ

كانّه من عِلْمه بالمقتل     علّم بقراط فصاد الأكْحل

فقالوا إن الاكحل ليس بمقتل ـ وعندى ان ابا الطيب ما اراد الا ان كلبه اصطاد عليه الغزال ولم يقتله حتى ذكّاه هو فهذا علمه بالمقتل أنه تجنبه والله تعالى اعلم •

وقال في كلب آخر وذكر المنظر وكان جبليا :

وشامخٍ من الجبال أقودِ

فَرْدٍ كيافوخ البعير الاصيد

تأمل هذه الصورة •••• خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى راس البعير وهو يرغو ويتشامخ •

يُسارُ من مضيقه والجلمد

في مثل مَتْنِ المسد المُعقد

وهنا تجربة ومشاهدة • وما أحسب احدا جرب ممرات الجبال الا يرى جودة ما ذكر ابو الطيب ههنا •

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الاخضر النضر الندى فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب •

فثار من اخضر مَعْطُورٍ ندى

كأنَّهُ بدء عِـــذَارِ الأَمْـــرد

فلم يَكَدْ الا لحَتْفٍ يهتدى

ومن قطعة المُعْجبات ، وهي مما يلحق ببـــاب الصيـــد قوله يصف عين باز :

اذا نَظَرَ البـــازُ في عِطْفِـه    كَسَتْهُ شعاعاً الى المنكب

وهذه صورة ناطقة •

وباب الشَّراب يلحق بباب الصَّيد ، ولم يَكُن أبو الطيب بصـــاحب شراب ولـكِنْ له في ذلك البَيْتُ والبيتان ، وقد يُحْسِن كلَّ الاحسان كعادته فيما يقول ، مثلا :

وَوَقْتٍ وفَى بالدَّهْرِ لى عند وَاحدٍ

وفـــى لى بأَهْلِيـــه وزادَ كثيـــــرا

شَرِبْت على استْحسان ضَوْءِ جبينِه

وزَهْرٍ ترى للمـاءِ فيـــه خـــريرا

وقولـــه :ـ

أُحِبُّ حمصـــا الى خُناصرة    وكلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ محياهـــا

حَيْثُ التقى خدها وتفاح لُبنان    وثَغْـــرِى عـــلى حمياهـــا

وصِفْتُ فيها مَصِيفَ بادِيَـةٍ    شَتَوْتُ بالصَّحْصَحانِ مشتاها

إن أَعشبت رَوْضَــةٌ رعيناهـــا    أو ذُكِرَت حِلَّـــةٌ غزوناهـــا

أو عَرَضـــت عانَـــةٌ مفزَّعـــةٌ    صِدْنا بأخْرَى الجِياد أُولاهـا

والخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وطـــاردة    تَجُرُّ طُولَى القَنا وقُصَراها

وما أظن ان أحدا اثبت صورة تفاح لبنان كما فعل ابو الطيب هنا
وفي هذه القصيدة لفتات أخر بارعات جدا ـ مثل قوله :

تعوم عوم القذاة في زبد
من جود كف الامير يغشاها

والصورة منتزعة من إزباد السيول وما يطفو عليه من غثاء .
وقوله :ـ

أبا شجاع بفارس عضد الدولة فنا خسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها
تقود مستحسن الكلام لنا كما تقود السحاب عظماها

وهذا موضع الاستشهاد وفي طيه معنى مشاهدة سحابة كبيرة تبرق
وترى صغار السحب نحوها مرقلات . وعين هذا المعنى أشار اليه في قوله
الذي مر آنفا :ـ

تلاك وبعض الغيث يتبع بعضه
من الشأم يتلو الحاذق المتعلم

ومما جمع فيه بين القنص وذكر الليل والصيد والشراب قوله :ـ

تذكرت ما بين العذيب وبارق
مجر عوالينا ومجرى السوابق

وصحبة قوم يقتلون قنيصهم
بفضلة ما قد كسروا في المشارق

تأمل هنا تسجيله لين ثرى الثوية وطيب مسه ـ ووازن بين هذا
قوله الذي مر آنفا :

لم نفتقد منك من مزن سوى لثق

وقولـــه :ـ

كأنَّ الجــوَّ وَعْث أو خبـــار

الوعث الرمل الذي تغيب فيه الارجل ، هكذا شرحه العكبرى ، والخبار الارض اللينة ـ لينا تسوخ فيه الاقدام كما يبدو من السياق ، وهذا خلاف الثرى الذي كأنه عنبر في المرافق بلا شـــك • وقبل الشـــطر الرائي الذي استشهدنا به آخرا قوله ، وفيه روح ما ذكرناه من خَلْط منظر الطبيعـــة بحركة القتال :

فأقبلها المُروجَ مُســـوَّمات ضَوامِرَ لا هِزال ولا شيار

وقوله لا شيار أي لاسمان

تُثيرُ على سَلمْيَةَ مسبطرا •••

أي عَجاجاً مُسْبَطِراً أي ممتدا •••• قال الآخر يصف سير ناقته :

ومن سَيْرِها العَنَقُ المسبطِر والعجرفيَّـــةُ بعـــد الكلال

هذا ••••••

تُثيرُ على سَلَمْيَةَ مُسْبَطِراً تَناكر تَحْتَه لولا الشِّعـــار

عجاجاً تَعْثُر العِقْبَان فيـــه كأنَّ الجوَّ وَعْثٌ أو خبـــار

ومما يَلفِتُ النظرَ اليه ههنا استكمالُ الصورة •••••••• المروجُ والعجاجُ والعِقْبانُ ، والخَيْلُ بطبيعةِ الحال ، في مُقَدَّمَةِ المنظرِ • ونعودُ الى الأبياتِ القافية :ـ

وليْلاً توســـدنا الثَّوية تَحْتَـــهُ

كأنَّ ثراهـــا عَنْبَرٌ فـــي المرافق

بــلادٌ إذا زَارَ الحســان بغيرهـــا

حَصَى ترْبهـا ثقَّبْنه لِلْمخَـسانق

وكما اثنى عـلى الثرى ، اثنى عـلى الْحصَى ـ ومـا احسب الا ان الأَندلسية رحمها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :ـ

يَروع حَصاهُ حاليَة العذارى فَتَلْمسُ جانِبَ العقدِ النظيم

والبيت جيّد •••••• والتوليدُ في الشعر مذهب مُتَلَئِبٌ ، يأخذُ الاخير عن الاول ••••• وكلٌ اولئك صَوْبُ الْحجَا كما قال ابو تمام •

سَقَتْني بهـــا القُطْرُبُلّيَّ مليحةٌ

على كاذِبٍ من وَعْدها ضَوْءُ صادق

الى آخر ما قال ، وانما اوردنا هذه الابيات لمكان وصف الحصى والثرى وحياة العراء والهواء الطلق فيها •

هذا ••••••••

ولابى الطيب بعد مَواضعُ أطالَ فيهن وَصْفَ الطبيعـة بَعْضَ الطول ورُبّما كان ذلك عن اقتراحٍ من ممدوحيــه ، على أَنه لم يخرج عن مذهبه من جعل كُلّ ذلك طَرفاً من حيويته هو وحركِته الدائبة ، وإحساسه القويّ بتجارب ما شاهد وانطبع في فؤاده ودفعه الى التغنّي والبيان •

من ذلك أبياته في البحيرة التي جعلها خاتِمةَ مدحه لعلى بن ابراهيم التنوخي وفيها قوله :

لولاكَ لم أَتْرك الْبحيرةَ والـ ـغورُ دفيءٌ وماؤها شـبم

والمَوْجُ مِثْلُ الفحول مزبدَه تَهْدِر فيهـا وما بها قَطَمُ

والطَّيْرُ فوق الحبابِ تَحْسِبها فُرْسانَ بُلْقٍ تَخونها اللُّجُمْ

كأنَّها والريـــاح تَضْرِبهـــا جَيْشَا وَغىً هـازِمٌ ومنهزم
كأنَّها فـــي نَهارِهـــا قَمَرٌ حَفَّ به من جِنَانِهـــا ظُلَم
نَاعِمَةُ الجِسْمِ لاعِظَام لهـا لها بَنَات ومـا لهـا رَحِم
يُبْقَر عَنْهنَّ بَطْنُهـــا أَبداً وما تَشـــكَّى وما يسيل دم
تَغَنَّت الطَّيْرُ فـــي جوانبهـــا وجادَت الأَرْضَ حَوْلَها الديم
فهـــي كمـــاوِيَّةٍ مطوقـــة جُرِّدَ عنهـــا غشاؤُها الأَدَمُ
يَشينُها جَرْيُهـــا على بَلَدٍ يَشينُـــه الأَدعيـــاءُ والقَزَم

الى آخر ما قال .........

والابيات في جملتها جيدة . وفي البيت الاول رضا بالدّفْءِ وحبٌ له . ووازن بين هذا وقوله :ـ

وقَدَ نَدَفَ الصِّنْبُر في طُرْقهـــا العُطْبا

وقولـــه :

يَقْمِصن في مِثْلِ المُدى من باردٍ
يَذَرُ الفُحولَ وهُنَّ كالخصيـــان

وقولـــه :ـ

يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ الباصق

والبيت الثاني فيه الاحساس بِقُوَّة الموج وازديادِه .... وقد جاءت هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :ـ

واحْـــذَرْه اذا كـــان مزبـــدا

وفي قوله :ـ

ومَوْجُ المنايا حَوْلهـــا متلاطم

وقوله « والطَّير فوق الحباب » أثبت فيه انطباع صورتين : الطير والامواج وأحسب ان اهتمامه بتشبيه الموج بالخيل وفرسانها اضاع عليه اكمال ما بدأ فيه من أمر صورة الطير •

وصورة تشبيه الموج بالخيل اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في الميمية ذات الهاء الساكنة في مدح سيف الدولة :ــ

وأحسَنُ من ماءِ الشبيبةِ كلّه
حيا بارقٍ في فازةٍ انا شائمه

عليها رِياضٌ لم تحكْها سَحابَةٌ
وأغْصانُ دَوحٍ لم تغَنَّ حَمائِمُه

وفَوقَ حواشي كُلِّ ثَوبٍ مُوَجَّهٍ
من الدرِّ سِمْطٌ لم يُثقّبْهُ نَاظِمه

تَرى حَيَوانَ البَرِّ مُصْطلِحاً بِه
يُحارِبُ ضِدٌّ ضِدَّه ويُسَالِمه

إذا ضربتْه الرِّيحُ ماجَ كأنه
تَجولُ مَذاكِيه وتَدْأَى ضَراغِمه

الشاهد قوله « تجول مذاكيه » ــ وغير خاف ان هذه الصورة أشبه بامواج البحيرة تهب عليها الريح منها بأمواج البحر ذى الثَّبج الغُطَامِط وقوله :ــ

كأنَّها في نهارِها قَمَرٌ حَفَّ بِه من جنانها ظلم

فيه ما قدمنا من قُوّة شعوره بضوءِ القمر وبهاءِ اشعاعه • ثم احسبه نظر فيه الى قول ابى تمام :

تَرَيا نهاراً مُشْمِساً قد شابه

زَهَرُ الربا فكأنما هو مقمر

وأحسب ان مقال اندرو مازفيل Agreen Shade فيه صِبْغٌ من ظلال معنى أبي تمام إذ لا يكون الظل أخْضَر إلا اذا كان عليه إشْعَاعٌ من خضرة الورق •

وعَجُزْ قوله :ـ

نَاعِمة الجِسْم الاعِظام لها لَها بَنَاتٌ ومالها رحم

مع ما فيه من تصوير حيوان الماءِ دون صدره ـ بل يوشك صَدْر صَدَره ان يكون هو لب البيت « ناعمة الجسم » لما فيه من قوة الاحساس بلين مس ماء البحيرة وهي ساكنة وقوله :ـ

تَغَنَّت الطير في جوانبها وجادت الارض حَوْلَها الديم

حي الصورة ، مشرق بالضوء والنسيم ورنات موسيقا الطبيعة •

وقوله :ـ

فهي كماوِيَّةٍ مطوَّقة جُرِّدَ عنها غشاؤها الأدم

كأنَّه مأخوذ من قول امرئ القيس :ـ

وعَيْنٍ كمراة الصناع تُديرها لِمَحْجِرِها من النَّصيف المُنَقَّب

وهو جيد في التشبيه . الا ان الصورة التي مرت في قوله « كأنها في نهارها قمر » اوضح وأجود •

ثم قوله :ـ

يَشينُها جَرْيُها على بَلَدٍ يشينه الأَدْعياء والقزم

تتمَّة لما كان ابتدأ به وَصْف البحيرة من قوله :ـ

لولاك لم أَتْرك البُحَيْرةَ والـ ـغورُ دَفِيء" وماؤها شبم

وهو في جملته قريب من قوله في ما بعد ، عندما رأى شعب بوان ،

أَعن هذا يُسارُ إلى الطِعان

ولا يَخْفى ان التعبير هنا أنْضَجُ وأجود • على أن المعنى الذي أراده في الميمية هو عَيْنُ المعنى الذي استطاع إيضَاحه وتَبْيينه ههنا ـ وهو ضرورة مغادرة الخفضِ والطيبات من أجل الحَرب ذات الشدائد ، مما لا يجد المرء منه بُدّاً في كثير من الاحيان •

واحسب ان هذا المعنى عينه هو الذي أجمله وجاءَ به على سبيل الحكمة في قوله :ـ

ومُرادُ النفوسِ أصْغَرُ من أَنْ تَتعادى فيه وأَنْ تتفانى
غَيْرَ أَنَّ الفتى يلاقى المنايا كالحاتٍ ولا يلاقى الهوانا

والادعياءُ والقزم من مَعْدِنِ الهوان وضريبته بلا ريب •

هذا ومن ذلك ايضا لاميته الارجوزة ، التي وصف بها الصيد مع عضد الدولة ومطلعها :ـ

ما أَجْدر الايام والليالى •

ووزنها من السريع « مستفعلن مفعولن » وان شئت عددته من الرجز دخَلهُ القطع ـ مُسْتَفْعِلْ وكَأَنَّ من أَبَى هذا كَرِهَ أن يُصار بشيءٍ أصله وتد الى سَبَبٍ كل منهما أصل في نظام العروض وفي هذا نظر • والأراجيز المشطورة كأنها أدنى الى النثر من القصيد المحكم ، واحسب هذه الكلمة من أبى الطيب لو قد كانت في أسلوب قصيدهِ المحكم لكان مكانها من شعره أعلى وأفحل •••••••

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بَابها لما اشتملت عليه من ضُروب التأمل والنظر الدقيق والتجارب السريعات المتلاحقات مع سَلاسةٍ وانفاس مَرَحٍ وفكاهة •

بدأ بمقدمة قصيرة تغنّى فيها بشيء من الفخر اولا :ـ

ما أجدر الايام والليالي    بأن تَقُول ما لـه ومالي
لا أن يَكون هكذا مقالي    فتىً بنيران الحروب صالي

وهذا كما ترى فيه معنى ضِيق نفسه بما لُزَّ اليه من صراع •

منها شرابى وبها اغتسالي    لا تَخْطُرُ الفحشاء لي ببال

وأحسب نفى الفحشاء عن نفسه دعاه اليه قوله «وبها اغتسالى» في قافية الشطر الذي قبله ، فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى ، حتى اذا قال :

وكيف لا وانما إدلالي    بفارس المجروح والشمال

أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على الاعداء •

حتى اتّقت بالفرّ والاجفال    فهالِكٌ وطائع وجالى

ثم أخذ من بعد في التماسِ اللّذات الشريفة لنفسه بالصَّيد وهو نزهة الملوك •

سَارَ لصَيْد الوحش في الجبال    وفي رقاق الارض والرمال

على دماء الانس والاوصال

وهذه صورة فظيعة ، وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة عند أحد الامراء ، فأصاب حافرُ فرسه بَعْض أوصال القتلى عند الباب •••••• فتأمل •

مُنْفَرِدِ المُهْرِ عن الرَّعَال

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدبير محكم .

ما يتحركن سوى انسلال ... فهن يُضْرَبن على التصهال

كلُّ عليل فوقها مختال ... يُمْسِكُ فاه خَشْيَةَ السعال

وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤبة يصف الصائد حيث اختفى ينتظر ورود الوحش :ـ

فباتَ والنَّفْسُ من الحِرْصِ الفَشَقْ

في الزَّرْبِ لو يَمْضُغُ شَرْياً ما بَصَقْ

أي من حرصه الشديد ألا يسمعه الوحش فينفر كان في زربه وهو مخبؤه لو مَضَغَ حنظلا ـ والشَّرْى هو الحنظل وهو أمرُّ الاشياء ـ ما بصقَ .

وليت شعري عن رؤبة كيف غفل عن صَوْت مضغ الحَنْظل نَفْسه ولعله ان يَعْتَذر معتذر له بأنَّ لَوْ تفيد عدم الوقوع اذ هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيرهِ .

يُمْسِكُ فاه خَشْيَة السعال ... من مَطْلع الشمس الى الزوال

ثم أخذ بَعْد في صفة صَحْراءِ الأرزن وحيوانها وما رَوَّعها به الاميرُ وصحْبه من دَمَوِيَّة واصطياد .

سَقْياً لدَشْتِ الارزن الطّوال

بَيْنَ المروج الفِيحِ والأَغيال

هذه هي الصورة الكبيرة العامة ـ صَحْراء واسعة ممتدة بعضها مروج وبعضها غاب .

دَانى الخنانيص من الأشبـــال

مُسْتَشْـــرف الدّب على الغزال

مُجْتمع الاضـــداد والاشـــكال

الخنانيص صغار الخنازير ••• والمكان كما ترى أشبـــه شيء بالغابات
ـسيحية التي تجعل الآن ملاجيءَ لنادر الوحش في أواسط أفريقية مثـــل
كينيا وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كأن فنّا خُسْرَ ذا الافضـــال

خـافَ عليهـــا عَوَزَ الكمال

فجاءَهـــا بالفيـــل والفيّـــال

اذ لم يكن دَشْتُ الارزن نَفْسه مكان ـ قَبلة ـ ثم هَذه فيلة من
نوع المُرَوض المقاتل ، فهي كالخيل ليست من الوَحْش ولكن امتـــداد"
بشـــر •

ثم اخـــذ أبو الطيب يَصِفُ ضروب الوحوش فافتنَّ في ذلك أي
فتنن مثل قوله في وصف الايائل وقرونهن الطوال الثقال :

وُلِدْنَ تَحْتَ أَثْقَل الأحمال

اذا تَلفَّتْنَ الـــى الاظـــلال

أريْنهن أَشْـــنع الامثـــال

كأنمَّـــــا خُلِقْـــن للاذلال

زِيادَةً فـــي سُبَّة الجهـــال

لان قرونها طوال ثقال بلا جدوى فهي ممّا كأنّهُ لم يُخْلَقْ إلا لان
يُسَبَّ به من يُسَبُّ فيقال هذا ذُو قرون إذا كانت زوجته تَخُونه •

والعُضْوُ ليس نافعـــا في الحال

لســـائر الجِسْمِ من الخبـــال

ثم اخذ في صِفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنّها ليست لها سِبَال ، جَمْع فادر :ـ

وأَوْفت الفُدْرُ من الأَوْعال مُرْتَدْياتٍ بقِسيِّ الضّـــال

يعني قرونهن شبهها بقسيِّ الضال وهو ضَرْب من السّدْرِ مستقيم الغصون ولعسري إن الفدر قرونهن انفسها مما كانت تُجْعَلُ افواسا فيكُنَّ في ما ذكروا شديدات النزع :

لهـــا لِحَىً سُودٌ بلا سِبال تَصْلحُ للاضْحاكِ لا الإجْلال

ثم اخذ في صِفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنّها ليست لها سِبَال ، بدليل قوله في هجائه كافورا وصحبه :

أغاية الدِّين أن تُحْفوُا شواربكم •••

الابيـــات ••••••

وانها تُضَمّخ بالابوال والزبل ••• وتَيْتَ شعري عن أبى الطيب كيف كان يقول لو علم أن بَعْضَ الناس هكذا يفعلون •

كُلّ أثيثٍ نَبْتُها مِتفـــال لم تُغْذَ بالمِسْكِ ولا الغَوالى

تَرْضَى من الأدْهَانِ بالأَبْوالِ ومن ذَكيِّ المِسْـــكِ بالدّمال

لو سُرّحَتْ في عَارِضَى مُحْتال لعدّهـــا من شَـــبَكات المـــال

وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائلة ـ ولا زالت هذه التجارة بين البشر ذات رواج •

ثم أخذ يصف المقتلة الرهيبة التي تلت لتلك الوحش اللائي كن قبل
... آمنات •

... اودعتهـــا عتل الرجـــال    في كـُلّ كِبـْدٍ كَبِـدَىْ نِصال

فهُنَّ يهوين من القِلال •

أي رؤوس الجبال •••••

مَقْلوبَةَ الأَظْلافِ والإرقال

اذ صرن جَنائِزَ بعد نَبْضِ الحياة ••

يُرْقِلْنِ في الْجَوِّ على المَحال

أي على فَقار الظهر •••

فــي طُرقٍ سَريعة الإيصـــال
لا يَتَشـــكَيْنَ مـــن الكـــلال
ولا يُحاذِرْن مـــن الضّـــلال

يا للأسف •••••••••

ثم طفر خَياله فذكر جَزيرةَ العرب : حَيْثُ بُسَيْطَةُ التي جابَتْها
... به جَوْبَ الرداء •

... جابت بسَيْطَةَ جَوْبَ الرداءِ بَيْنَ النعـــامِ وبَيْـــنَ المهـــا

فخافَ على وَحْشها وَوحش نظيراتها ذوات النَّعام والمها والضباب
والاورال مِنْ بأس الامير أن يصيبها مِثْلُ ما أصاب الفُـــدْرَ
... بدَشْتِ الأرزَن :

... وَحْشُ نَجْدٍ منه في بَلْبال    يَخَفْنَ في سَلْمى وفي قيال

سَلْمى جَبَل طيىء وقيال لبنى عامر

... فِرَ الضِّبـــابِ والأَوْرال    والخاصباتِ الربْـــدِ والرئال

والخاصباتُ النعام والرئالُ اولادهُن جَمْعُ رأْل

الظبى والخنْنَساءِ والذَّيالِ يَسَمعْنَ من أَخْباره الأَزْوال

أي العجيبة .

ما يَبْعَثُ الخُرْسَ على السؤال

فحولُهـا والعُوذُ والمتالى تودُّ لـو يُتْحِفهـا بوالى

يَرْكَبُها بالخَطْم والرِّحـال

أي فتَصير أليفة مُذْعِنة كالإبل والبقَر والضأْن والمعزى

يُؤْمنِها من هـذه الأَهْـوال

ويَخْمُس العُشْبَ ولا تُبالي

أي يأخذ منها خُمْسَ العشب فيجعله من نصيب غيرها ممن تَأَلَّفَهُ ابْنُ آدم من قبل

وفي الوحش من ضبابٍ وأورال وبعضِ الغزلان مَراكِبُ للجن فلابُدَّ من قهر الجن -

فأكْمَلَ ابو الطيب طَفْرة خياله البديعة بقوله :

لـم يَبْقَ الا طَرَدُ السعالى

وهن نساء الغيلان ، ضَرْب من الجن ، وقالوا مِنْهن نِساءُ صدقٍ ، واشار الى هـذا المعنى أبو العلاء في رسـالة الغفران حيث ذكر حَديث تأبط شرا وأبياته التي يقول فيها :

انا الذي نَكَحَ الغِيـلانَ في بَلَدٍ

ما طَلَّ فيـه سماكيٌّ ولا جـادا

بحَيْثُ لا يَعْسِتَ الغادى عَمايته
ولا الظليمُ بـه يَبْغِي تِهبّـادا

وقد لَهَوْتُ بمصقولٍ عوارضـها
بِكْرٍ تنازعنى كأسْـاً وعنقـادا

ثم انْقضَى عَصْرُها عنّي وأَعقبـه
عَصْرُ المشيب فقُلْ في صالحٍ بادا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فِكْرَة رسالة الغفران كلها من شَطَحات أبى الطيب في هذه اللامية ـ كالذي تقدم من طَلَب الوحش أن يجعل الامير عليها واليا واذعانها لتُركَب ثم ما صار اليه ابو الطيب بعد من صِفَة مطاردةِ السعالي على ظهور الابل في الليالي غير المقمرات .

لـم يَبْقَ الا طَرَدُ السعالى
في الظُّـلمَ الغـائبة الهـلال
عـلى ظُهـور الإبل الأُبَّـال

أي الطويلة الصبر على العطش .

فقـد بَلغَت غـاية الآمـال
فلم تَدَعْ فيهـا سوى المحال
فـي لامكانٍ عنـد لا مَنالِ

وفي رسالة الغفران شواهد قوية من معنى انتفاع أبى العلاء بأخيلة هذه الارجوزة ـ من ذلك ما جاء في نعته مراكب الجن على لسان أبى هدرش :

ـحُننا في الجُنْح خَيْلٌ لها أَجْنِحة ليست كخيـل الأنيس
..ـنُقٌ تسـبق ابصـاركم مَخْلوقة بـين نَعـامٍ وعيس

كأنه يعلق بهذا على قول أبي الطيب :

في الظُّــلم الغائبة الهـــلال على ظُهور الإبــل الأُبَّـــال

كأَنَّه كَوْنُ الابل أُبَّالاً وحده لا يكفى ، فينبغي ان تكون غريبة الهيئة بَيْنَ النعام والإبل ، فهذا اشبــــه بالجن كما ترى . ولعله أخــذ قوله ( بين نعام وعيسٍ ) من قول أبي الطيب :

بَيْنَ النعـــام وبين المها

ومع ان المراد بِبَيْن هنا التوسط ، لا يخفى ان صُورةَ نَاقَةِ أبي الطيب بَيْن هذين الصنفين قد تسنح الخيال شَـــكْلاً أشبه بما نعته أبو العلاء ...... وهذا بَعْدُ باب مما يطول فيه مَجال الاستقصاء فنكتفي منه بهذا القدر ان شاء الله .

هذا واختتم أبو الطيب لاميته بقوله :ـ

وربَّ قبــح وحُلىً ثقـــالِ أحْسَنُ منها الحُسْنُ في المعطال

فَخْرُ الفتى بالنفس والفعـــال من قبلـــه بالعـــمِّ والاخوال

واحسبه جمع الاخوال لما فيـــه من معنى الام ، كأنّ مراده « بالام وعشيرتها » ، وذلك لانه كان يسكنـــه ان يقول بالعم أو بالخال ، وليس بِجَيِّدٍ جَوْدَةً هذا والله اعلم .

وهذه المعاني بعد ، حُسْن المعطال والفخر بالنفس والفعال قديســة عميقة في قلب ابى الطيب وقد مر بك قوله :ـ

أَغناه حُسْنُ الجيد عن لُبس الحلى

وعـــادَةُ العـــرى عـــن التفضـــل

كأنـــه مُضَمَّخ بَصَنْـــدَل

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقولـــه
وعادة العرى عن التفضل » يستفاد منه أن النساء على زمانه كنّ ربما تزين
ببعض هذا • وقوله من البائية :ـ

ولا بَرَزْنَ من الحمّام ماثِلةً    أوراكهن صَقيــــلاتِ العراقيب

صريح في هذا المعنى •

وقولـــه :ـ

ابن من بعضه يَفُوق آبا    الباحث والنَّجْلُ بَعْضُ من نجله
ما يَذْكر الجــدودَ لهم    من نَفَروه وانْفَدوا حِيَلــه

وقولـــه :ـ

أرى الاجداد تغلِبُها جميعــاً    على الاولادِ اخــلاقُ اللئــام
ولست بقانعٍ من كلّ فَضْلٍ    بأن أعْزَى الى جَدٍّ همــام

وهذه النهاية أعنى نهاية لامينه حيث قال :ـ

فخر الفتــى بالنفس والفعــال    من قبــله بالعــم والاخوال

من سنخ ما ابتدأ به اولا حيث قال :

مـا أجْـــدَر الايام والليــالى
بأن تقـــول مالــه ومـــالى
لا أنْ يكونَ هــكذا مقــالى
فتىً بنيرانِ الحروب صـــالى
منها شَرابي وبهــا اغتســالي
لا تَخْطُر الفحشـــاءُ لى ببال

في هذه الارجوزة من خفة الروح وعفوية الاداء وسَخاءِ الطبع ما كأنه مباين للمألوف من سخونة أبى الطيب وذكورة شخصيته وصرامتها ، ولذلك ما زعمنا آنفا انها في بابها فريدة ، على ان جميع هؤلاء الصفات اللاتى هي بِهنّ فريدة مما اختزنته عبقريَّة ابى الطيب في أغوارِها دَهْرا • وهو بعد القائل :ــ

لَقَد أصْبَحَ الْجُرذ المستعِير أسير المنايا صَريعَ الْعَطب
رماه الكنانيُّ والعامريُّ وتلاه للْوَجْه فِعْلَ العرب
كلا الرجلين اتَّلى قَتْلَهُ فأيُّهما غَلَّ حُرَّ السلب
وأيُّهما كان من خَلْفِه فإنّ به عَضَّةً في الذنب

فهذه من مَعْدِن

لو سُرِّحت في عارضَيْ مُحْتال لعدَّها من شبكات المال
بين قُضاة السوءِ والجُهَّال

والقائل :ــ

صحبْتُ في الفلوات الْوَحْشَ مغتربا
حتى تَعَجَّب منى القُور والاكم

ومحل الاستشهاد ههنا ان هذا البيت قاله في ميميته •

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم

وكأنما يأنس به إلى الْوَحْشِ من مجلس سيف الدولة • وقد ذكر ابن هشام صاحب مغنى اللبيب واو الثمانية فنسب أَمْر التمسك بقضيتها الى بعض ضُعَفاء النحاة مثل ابن خالويه ، ويبدو لى أنه ما نص على ابن خالويه

ضعيفاً في النحاة إلا لما كان من مكانه في عداوة أبي الطيب وما ذكروا أنه شجّه بمفتاح لما انشد هذه القصيدة ، قالوا فقال أبو الطيب :ـ

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا    فما لجرحٍ إذا ارضاكم ألم

يعني بالحاسد ههنا جماعة الحساد كلهم ابن خالويه وابا فراس وهلم جرا ....

ومن هنا ترى وجه صوابه اذ استقرب الوحش بالقور والاكم دون هؤلاء .

وما أبعد في هذا الذي صنعه عن مذهب الشنفرى حيث قال :ـ

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فإني الى قومٍ سواكم لأميل

ولي دونكم أهلون سيد عملّس
وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هم الاهل لا مستودع السر ذائع
لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل

وقال يذكر بأس سيف الدولة في العرب والروم في لاميته « أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل » :ـ

فالعرب منه مع الكدريّ طائرة

يعني القطا وارتباطه بالعرب وارضهم معروف وقد تعلم في ذلك قوله صاحب اللامية :ـ

كأنّ وغاها حجرتيه وحوله
أضاميم من سفر القبائل نزّل

فهـــذا .......

والروم طـــائرة منـــــه مع الحجـــــل

والحَجَلُ شمالى المنزع وهو من حِسان الطير أكبَر من الحمام والقطا

وما الفرارُ الى الأجبـــال من أَســـدٍ

تَمْشى النّعام به في مَعْقِلِ الوعـــل

وكلا النعام والوعل فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداءَ سيف الدولة من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعول ـ ولمعرفة ابى الطيب بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعول والمهـــا والغزلان ، لا على سبيل التقليد والمحاكاة ، في شِعْره كثيرا ـ من ذلك ما تقدم ومثل قوله :

فأَتَيْتَ معتزِمـــاً ولا أَسَدٌ ومضَيْتَ مُنْهَزِماً ولا وعل

وفي الابيات اللامية المتقدمة قوله :ـ

فكلّما حملت عذراءُ عنـــــدهم فإنما حملت بالسَّبْى والجمـــل

جاز الدروب الى ما خلف خرشنة « وهي من أرض الروم » وزال عنها وذاك الروع لم يزل .

وكأن استغراب الروم وبنى عمهم الفرنجةِ للجمل ونِسْبتَهم إياه الى دار العرب والاسلام قد كان منذ ذلك الزمان وما أحْسِب أن احدا أبان عن هذا المعنى كما صنع أبو الطيب ههنا ـ فهذا من باب ثَباتِه على المحكّ الذي لا ينكر مما نبّه عليه ابْنُ الاثير في المثل السائر .

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :ـ

مغَانِى الشّعْبِ طيباً في المغانى

والنصَّب هو الوجه والتقدير تَزِيد طيبا أو تَطِيب طيبا أو طيبا لها

بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وكأنه هنا يلوم نفسه على عظم ارتياحه لهذا المكان وفرحه به ......
وفي القصيدة حنين الى بلاد العرب كأنه يحمل في طياته نوعا من الشعور الخفي بقرب المنية :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

هنا أبو الطيب مباعد نفسه عن بهجة منظر الشعب ومرح مراه مخالطه نوع من تردد بداوة واستحيائها ..... ثم إذا به يدعوه المنظر الكريم الى ان ينسجم معه ويتمتع به - فكنى عن نفسه بحصانه ، وأورد ذلك مورد الجماعة ، لما يناسب ذلك روح التباعد والتردد والاستحياء ....

ونذكر هنا مقال ابن رشيق أن ابا الطيب كان مما يأنس الى الخيل في الباب الذي يقع فيه ذكر الابل والتسيب ويستعمل فيه بعض المولدين ذكر الحدائق « والنواوير البلدية » ...... فقد جمع أبو الطيب ذلك كله جميعها ههنا .

طبت فرساننا والخيل حتى

خشيت وان كرمن من الحران

وانما كرمت لانها عربية مثله ؛ وكغربته كانت غريبة - فحل الرمز والكناية كما قد منا واضح .........

ثم اخذ جمال الشعب وفتنته يغلبان عليه :

غدونا تنفض الأغصان فيه

على أعرافها مثل الجمان

فَسِرْتُ وقد حَجَبْنَ الشَّمْسَ عنى
وجِئْنَ من الضيـاء بمـا كفـانى

ونَسِيَ الفتى العربيُ مفاوزَ بلادِ العرب وكلَّ قفرٍ :

عَلِيقِي مَرَاعِيـه وَزَادِيَ رُبْـدُه
وألقى الشَّـرْقُ منهـا في ثيـابى
دَنانيـراً تَفِـرُ مـن البنـان

ولا يَخْفى أن الشاعر ههنا انسجم مع رشاقة حركةِ الغصون ولُطْفِ استدارة الشعاع وتَحَرُّكه على الثياب وهُوَ الكريم وحصانه الكريم كلاهما سائرٌ ومنتش بهذه الكأس الدهاق من خَمْر الحياة :ـ

لهـا ثَمَرٌ تشير اليك منـه بأَشْرِبَةٍ وقفـن بـلا أواني

هذا البيت كما ترى ذِرْوة ، من حيث اتصاله بمعنى ما قبله اذ فيه قد اختفى شُعور الغربة والبعد كل الاختفاء ، وبَلَغ الافتتان أَوْجـه ومن حيث انه وصف حيّ دقيق ، وليت شعري عن اندرو ما قيل حيث قال :ـ

The nectarine and the curious Peach
Into my hands themselves do reach.

هل نظر في قوله the curious Peach الى قول شاعرنا :ـ

غَريب الوجه واليد واللسان ؟

لها ثَمَرٌ تشير اليـك منـه بأشْـربة وقَفَن بـلا اوانى

تأمل قوله :ـ وقفن بـلا اوانى لاريب نظر أبو الطيب إلى قَوْل ابْن الرومي في العِنَب « كأنه مخازن البلور » ولكن هذا تشبيه بارع ليس الا .... لا يذهلنا بالحيوية وصِدْق التجربة كما يذهلنا قول ابى الطيب .

وأمـــواهٌ تَصِـــلُّ بهـــا حصاهـــا
صَليلَ الحَلْي في أيـــدي الغواني

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جَمالِ الحصى عليه رقراق الماء وحكايةُ جميع ذلك صَوتاً ومنظرا من طريق الجنـــاس في الصادات والتشبيه في قوله صليل الحَلْي في ايدي الغواني .

والمعنى قديم في نفس ابى الطيب بآية قوله :

شَرِبت على استحسان ضوء جبينـــه
وروض ترى للمـــاء فيـــه خـــريرا

وقولـــه :

بلادٌ اذا زارَ الحسانَ بغيرها    حَصى ترْبها ثَقَبْنه للمخانق

ولكنه ههنا أحكمه وبلغ به غايةَ الجودة .

وقد اخفت الاندلسية سَرِقتها مِنْه حيث قالت :

وقَـــانا لَفْحَـــة الرمضـــاء وادٍ
سقاهُ مُضـــاعَفُ الغَيْثِ العميـــم

نَزَلْنـــا دَوْحَهُ فحَنـــا علينـــا
حُنُوَّ المرضـــعاتِ عـــلى الفَطيـــم

وأسْـــقانا عـــلى ظَمـــأٍ زُلالا
ألـــذَّ مـــن المُـــدامة للنَّـــديم

يَروع حصـــاه حالِيَـــة العَـــذارى
فَتلْمِسُ جانِبَ العِقْـــدِ النظيم

والابيات في جملتها متأثرة بأبيات الشعب : صفة الظل والخفض والنعمة ثم بيت الحصى ينظر مباشرة الى بيت ابى الطيب ويخفي هذا النظر بهذه الصورة الحسنة من توهم الحسناء أن عقدها انفصم فتلمسه وما هو الا حصباء ذلك المكان ......

وهذا الذي أخفت به سرقتها من بيت مغاني الشعب إنما اخذته من بيت « تذكرت ما بين العذيب وبارق » وقد سبق لنا التنبيه على ذلك .

وابيات الاندلسية ـ بعد جيدة في بابها ذات تجربة مستقلة تحمل طابع الأندلس وما كان عليه ظرفاء أهلها من حب الاستمتاع بالتنزه في الأودية ... وفي شعر ابن زيدون شواهد حسنة مما يصدق ذلك . وههنا ينبه الى أنها لاتذكر من الفاكهة شيئا ، وانما تذكر الدوح والظل ، فهذا مع حلاوة الروح التي في هذه الابيات مما يجعلنا نقطع باستقلال تجربتها .

هـذا ...

وبيت :

صليل الحلي في ايدى الغوانى

كأنه انصراف عما افتتن به أبو الطيب من دعاء الثمار والأشربة الواقفات بلا اوان له .

وسبح خياله مع هذه الانصرافة الى ذكرى الشام ،

ولو كانت دمشق ثنى عنانى
لبيق الثرد صينى الجفان

يلنجوجى ما رفعت لضيف
به النيران ندى الدخان

أي كريم عربي ••• وفي هذا البيت روح ترنّم خفى بسعنى قوله من قبـــل :

ولكنّ الفتى العـــربىّ فيهـــا غريبُ الوجه واليد واللســـان

ثم انتبه مرة اخرى ، وهو بَعْد منتبه لم ينفصم عن ذلك الى شـــعب بـــوان :

يَحل به عَلى قَلْب شـــجاع ويرْحَلُ منـــه قلب جبـــان

الضمير في به « يَعُود على الشعب لان سياق الحديث عنه ، يَدُلك على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غُوطة دمشق لكان وكان ••••• وفي لو ههنا معنى من معانى التمنى البعيد ••• ليت ان غوطة دمشق كانت هكذا أَمْناً وخَفْضاً وإذَنْ ما كُنْت اغادرها وأُضطر لأَن اكون غريب الوجهِ واليدِ واللسان •••• ودِمَشْقُ ههنا انما هِيَ رمز للشامِ كله ، ولما كان فيه من عَهْـــدِ سيف الدولة وحَلب والعراق جميعا •••••••

ولكنّ هذه الرياضَ شِعبُ بوان ، وقد اقدمت عليـــه وأنا متهيّب وهأنذا أُعْجَبُ به كلّ الاعجاب ••••

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظَاهِر الامر أقبل على الشعب بقَلْبٍ جبانٍ ورحل عنه بقلبٍ شجاع ••••ولكنّ تعبيره الذي ذَكَر أَصْدَق وقد نَصَّ عليه نصّاً في ما بُعد :

مَنازِلُ لم يَزلْ منها خَيَالٌ يُشَيّعنى الى النّوبنَذجـــان

أي منازل الشام والشّعب جميعا ••••• ومثل هذا المزج عنـــد ابى الطيب كثير ، وشاهِدُ الحال يَدُلّ على أَنّه تذكّرَ مَنازِلَ دمشق وهو

بأرض فارس ، وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجماله وبقاء ذلك في نَفْسِه البقاءَ الطويل •

اذا غَنّى الحمامُ الورقُ فيها أجابته أغانِيُّ القيان
ومن بالشّعْبِ أحْوَجَ من حَمامٍ إذا غَنى ونَاحَ الى البيان

ولا ارى « من بالشعب » اراد به أبو الطيب أحداً غير نفسه وشنان ما بين قوله ههنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشينها جَرْيُها على بَلَدٍ تَشينه الادعياء والقزَم

على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنّهُ عنى عُجْمةَ من كانوا بالشّعْبِ ورُوحُ الأَداءِ لا يَحْتمل هذا التأويلَ • وقوله :

وقد يتقارَبُ الوصفانِ جِداً وموصوفاهما متباعدان

يُقَوى ما نَذْهب اليه ههنا ، إذ الحمام يُغَنّين طربا ، وهو كَذلك يصنع ، بهذا النشيد الفذّ الخالد :

يَقول بشعب بَوّان حصاني أَعَنْ هذا يُسار إلى الطّعان
أبُوكم آدمٌ سَنَّ المعاصي وعلمكم مُفارقة الجنان

واذ حصان ابى الطيب فيه مَعْنى الكناية عن نَفْسه فإنه لم يغادر الشعب الا كارها كما ترى •

وأُنس ابى الطيب الى حصانه ومودته له لا يخفى • وهذا الّذي جعل ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :ـ

وقد ذكر ابو الطيب الخَيْل في كثيرٍ من شعره وكان يُؤْثرها على الإبل لما يَقوم في نفسه من التهيب بذِكر الخيل وتَعاطِي الشجاعة فقال يذكر قدومه الى مصر على خوف من سيف الدولة :

| | |
|---|---|
| وَيَوْمٍ كليلِ العاشقين كَمَنْتُه | أراقِبُ فيه الشَّمْسَ أيان تغرب |
| وعَيْنى إلى أُذْنَىْ أغرَّ كأنَّه | من الليل باقٍ بين عَيْنَيْه كوكب |
| له فَضْلَةٌ عن جِسْمه في إهابه | تَجِيءُ على صَدْرٍ رحيبٍ وتذهب |
| شَقَقْتُ به الظلماء أُدْنى عِنانه | فيَطْغَى وأُرخيه مِرارا فيلعب |
| وأصْرَعُ أَيَّ الوحشِ قَفَّيْته به | وأَنْزل عنه مِثْلَه حين أركب |
| وما الخَيْل الا كالصديق قَليلةٌ | وان كثرت في عَيْنِ من لا يجرب |
| اذا لم تشاهد غير حسن شياتها | وأعضائها فالحسن عنك مغيب |

واستشهاد ابن رشيق بهذه الابيات جيد ، لما فيها من صورة الوصف مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها • والبيتان الاولان شديدا حيوية الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا مغانى الشعب :

| | |
|---|---|
| يقول بشعب بوان حصانى | اعن هذا يسار بى الطعان |
| ابوكم آدم سَنَّ المعاصى | وعلمكم مفارقة الجنان |

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة ذات العُمْقِ الفلسفي التي بحرها جعل يغرف ابو العلاء المعري من بعد ؛ وفيها بَعْدُ الروح الفكِه الساخر الذي احسسنا من انفاسه القويات في الارجوزة •

ما أَجْدر الايام والليالى

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر ـ لا أحسب ذلك في شِعرِ ابى الطيب وَحدَه ولا بالنسبة الى شِعر العرب وحدهم •••••

وفي القصيدة بَعْدُ من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصفِ الطبيعة ما لا يَتَّسِعُ له نطاق هذه الكلمة •••

ويستوقفني بعد قوله :ــ

حَميَ أطْــرافَ فَــــارس شَمَريٌ
يَحُضُ على التبـــاقي بالتفـــاني

بَضَرْب هـــاجَ أَطْرابَ الْمنَـــايا
سِوىَ ضَرْبِ المَثـــالِثِ والْمَثانِي

فهذا كأنَّه فيه صدىً من اغاني شِعْب بوان حمائمه وقيانه وشاعِرُه الغريب :

كأن دَمَ الجمـــاجم في الْعناصي كسَا الْبُلْدانَ رِيش الحيقطان

مِسْكين الْحَيْقطان ...... لو كان أبو الطيب رآه في الشّعْب ما كان خلط جماله بصُورة الجماجم والعناصِي والدماء .. ولقد تذكر خَلْطه فظاعة منظر القتل والدماء بالريحان والشقائق حيث قال :ــ

ولا تَرِد الغُدْرانِ الا وَماؤُها من الدَّم كالريحانِ تَحْت الشقائق

وقريب منه قوله في « النارنج والاغصان » .
وههنا رَيْش الحيقطان ..........

هل كان أبو الطيب عَامدا في جميع هذا الى مُعارضة مذاهب ضعفاء شعراء زمانه من وصفهم النواوير البلدية على حَدّ تعبير ابن رشيق ومـــا بسجراها من الطيور والحيوان ........

.... الراكبُ الْخيلَ كُلَّـــه وإن كان بالنيران غَيْرَ موســـم

أم يا هل ترى عطف أبو الطيب على الحيقطان ــ وهو طائر مليح داجن مما يتألّفه الناس ويذبحونه وينتفون ريشه ذا الالوان الزاهية كما يصنعون بريش الدجاج .....

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يُسار الطعان
أبوكم آدمُ سَنَّ المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبْدِعا مبرزا في جَميع ما راض عليه بيانه من ضروب القول فأجادَ ........ وحسبنا بَعْدُ هذا القدر من حديثه وحديث الطبيعة .

ولله الحمد اولا وأخيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا .

عبدالله الطيب

١٩٧٧-٣-٢٤

* * *

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان

الخطوط : رضا الخطاط

التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م

الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام
بغداد
١٩٧٧

دار الحرية للطباعة
السعر ١٠٠ فلـ
توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان